إبراهيم مضواح الألمعي

ذاكرة الطباشير

مؤسسة الانتشار العربي

ذاكرة الطباشير

ذاكرة الطباشير

مقالات في التربية والتعليم

إبراهيم مضواح الألمعي

طبعة أولى 2014م

المحتويات

تَقْدِمَة 9
قصة التعليم في رجال ألمع 11
لمحة عن رجال ألمع 11
التعليم القديم 13
التعليم الحكومي 16
المعهد العلمي برجال ألمع 18
افتتاح إدارة التربية والتعليم 19
تعليم البنات 21
قيادة وريادة 25
في مدرسة القرية كانت لنا أيام 29
المعلم.. في غربال الذاكرة 37
المعرفة.. المجلة التي وِلِدَتْ مرتين 51
أين تراثنا التعليمي؟! 61
محمد الزيداني... المعلم النبيل 67
ماذا يريد المجتمع من نفسه؟ 77
عواطف المعلمين النبيلة القاتلة 85

أيها المعلمون.. تشبهوا إن لم تكونوا.. 91
تربية تمزيق الرأي المخالف 107
المروءة سيدة الأخلاق 113
كُلُّنا شِلَلِيّون 121
أعيدوا لقبه المسلوب 127
هل تطيق وداعًا أيها الرجل؟ 135

سَنَواتٍ في ميادينِ الكفاحِ المُرِّ عِشتُ
وسَهِرْتُ الليلَ والمِصباحُ يدري كم سَهِرْتُ
وكتبتُ الحرفَ معجونًا بعُمري إذ كتبتُ

❀ ❀ ❀

كيف أنسى ها هُنا ما عشتُ يوما خُطُواتي
كيف أنسى في مجالِ الدَّرسِ أغلى نَبَراتي
كيف أنسى فَرَحِي.. صمتي.. أحاديثي نُكاتي

❀ ❀ ❀

ها هُنا ذاتَ صباحٍ كان لي صوتٌ وشَرْحُ
كيف أنسَى مِهْنَةَ الطَّبْشُورِ.. والطَّبْشُورُ جُرْحُ؟(*)

(*) الأبيات من قصيدة (الطبشور جرحٌ) للشاعر الفلسطيني: محمود مفلح، والطَبَاشير: مادّة جيريّة بيضاء (أو ملوَّنة) قليلة الصلابة، تستعمل للكتابة على السُّبورات، ونحوها.

تَـقْـدِمَـة

إن السَّيرَ في دروب التربية والتعليم لأربعة عقود: تلميذًا، فمعلمًا، فمشرفًا للإعلام التربوي، فأمينًا للمكتبة ومصادر التعلم، يملأُ العين بالمشاهدات، ويملأُ القلبَ بالعواطف، ويملأُ الذاكرةَ بالمواقف، ويملأُ الفكر بالرؤى والتطلعات، التي تَنَفَّسَ بعضَها قلمي، عبر هذه المقالات التي نُشرت بين عامي (1999م و2014م)، أعيدُ نشرها مجتمعةً في كتاب، بعد أن كانت متفرقةً من حيث زمن النشر ومكانه، لعلَّها تكونُ شاهدةً على مرحلةٍ من مسيرةِ التربية والتعليم من وجهٍ، وعلى المسيرة التربوية والتعليمية لكاتبها من وجهٍ آخر.

ولأن الطباشير كانت يومًا أهمَّ أدوات التواصل في الحقل التعليمي والتربوي، بالنسبة إلى التلميذ والمعلم، جاءت هذه المقالات شيئًا من (ذاكرة الطباشير) التي توشك أن تصبح بدورها مجرَّدَ ذكرى، في ظل شيوع سبورة الفايبر، والسبورات الإلكترونية الأخرى.

أنشر هذه المقالات على الصورة التي نُشِرَتْ عليها أولَ مرَّة، دون تغيير، ودون تعمُّد ترتيبها على منهج محدّد، إلا فيما يتعلق منها بمرحلة تاريخية فقد اقتضى ذلك تقديمَها.

والله ولي التوفيق..

إبراهيم مضواح الألمعي

رمضان 1435هـ

يوليو 2014م

ألـمـع

قصة التعليم في رجال ألمع(*)

لمحة عن رجال ألمع(1)

تمتد محافظة رجال ألمع من منحدرات جبال السّروات شرقًا، إلى سواحل البحر الأحمر غربًا، واقعة بين خطي طول (14 ـ 41)، وتمتد شمالًا إلى حدود محافظة محايل عسير، وجنوبًا إلى حدود محافظة الدرب، التابعة لمنطقة جازان، بين خطي عرض (5، 17 ـ 20).

وتمتاز محافظة رجال ألمع بتنوعها الطبيعي، حيث تجمع بين المرتفعات الباردة، والسهول الدافئة، إضافة إلى الشواطئ الممتدة على ساحل البحر الأحمر على امتداد بلدة الحريضة والقحمة، الواقعة غرب المحافظة، وقد وفَّر هذا التنوع الطبيعي لأهلها أجواء مختلفة، فينعمون بالمصيف البارد في المرتفعات،

(*) مجلة **المعرفة**، العدد (189)، محرم 1432هـ ـ ديسمبر 2010م.

(1) المعلومات والأسماء مرتبطة بزمن نشر المقالة، ولا شك أن كثيرًا منها قد تبدل بمرور السنوات.

والمشتى الدافئ، في السهول والمنخفضات. وعبر رجال ألمع يمتد الطريق الواصل بين محايل عسير (شمالًا) وجازان (جنوبًا)، بطول يبلغ نحو 100كم.

وتتكون محافظة رجال ألمع من مركز المحافظة الذي يضم الإدارات الحكومية، الممتدة على الطريق العام من بلدة (الشعبين) جنوبًا حيث مبنى المحافظة إلى بلدة (سَنُوْمَة) شمالًا، حيث تقع آخر الإدارات الحكومية، والمراكز التجارية على امتداد عشرة أكيال تقريبًا. وتنتشر مئات القرى على مساحة المحافظة التي تقدر بنحو10,000كم2. ويدير شؤونها إضافة، إلى المحافظة، ثلاثة مراكز هي: مركز حسوة، ومركز الحبيل، ومركز الحريضة.

وألمع في اللغة: من لَمَعَ الشيءُ يلمعُ لَمْعًا ولَمَعانًا ولُمُوعًا: برقَ وأضاء، وألْمَعَ البلدُ: كثُرَ كلؤه، والألمعي: الذكي المتوقد الحديد اللسان والقلب، الذي إذا لمع له أول الأمر عرف آخره.(تهذيب لسان العرب لابن منظور، 2/ 518).

ويرجع سكان محافظة ألمع إلى عشر قبائل هي: (قبيلة قيس، وقبيلة بني ظالم، وقبيلة البناء، وقبيلة بني قطبة، وقبيلة بني عبد العوص، وقبيلة بني عبد شحب،

وقبيلة شديدة، وقبيلة بني زيد، وقبيلة بني جونة، وقبيلة بني بكر) ويقدر سكان ألمع بنحو ستين ألفًا. وتنتسب قبائل ألمع إلى الأزد، وجدهم (ألمع بن عمرو بن عدي) كما يُرَجِّحُ المؤرّخون.

وتتعدّد في ألمع المواقع والحصون الأثرية، والقرى القديمة التي أصبحت طلولًا، ولكن المَعْلَمَ الأثري والسياحي الأبرز في محافظة رجال ألمع هو: (حصون رُجال) بضم الراء، البلدة العامرة بالحصون التاريخية، والأثرية، التي حظيت بعناية خاصة من أبنائها الذين حولوها إلى معلم سياحي، ومعرض تراثي دائم، يستقطب، السُّياح من داخل المملكة ومن خارجها، وقد سهَّلَ وصولَ السُّياح إليها وجودُ العربات المعلَّقة (التلفريك) التي تنقل السُّيَاح في رحلة شيِّقة من جبال السودة الشاهقة الارتفاع، إلى منخفضات رجال ألمع، ما يتيح لأفواج السُّياح زيارة آثار ومعرض رجال ألمع الدائم للتراث، والمكتبة التراثية، ومسرح ألمع الدائري المفتوح. بقليل من الجهد وكثيرٍ من المتعة.

التعليم القديم

في الثلث الأول من القرن الثاني عشر الهجري، برزتْ المدرستان الحفظيتان (نسبة إلى أسرة آل

الحفظي) في بلدة (رُجال) وبلدة (عَثَالِف)، وبرز في هاتين المدرستين عددٌ من العلماء، من أمثال الشيخ أحمد الحفظي بن عبد القادر (المتوفى سنة 1233هـ/ 1818م)، والشيخ محمد بن أحمد عبد القادر (المتوفى سنة 1237هـ/ 1822م)، والشيخ إبراهيم الزمزمي بن أحمد الحفظي (المتوفى سنة 1257هـ/ 1841م)، والشيخ أحمد الحفظي بن محمد (المتوفى سنة 1361هـ/ 1941م)، والشيخ إبراهيم بن زين العابدين الحفظي (المتوفى سنة 1372هـ/ 1952م)، ولم يكن هؤلاء العلماء بأقلَّ شأنًا من نظرائهم في المراكز العلمية، في الحجاز واليمن، فكانت المدرستان مقصدًا لطلاب العلم من أنحاء متفرقة من عسير، بما في ذلك مدينة أبها التي لم يكن بها مدرسة، آنذاك، بل إن هناك من يؤكد من أحفاد معلمي تينك المدرستين من آل الحفظي، أن لديهم من سجلات تلاميذ المدرستين، ما يدل على وجود دارسين في هاتين المدرستين من بلاد غامد، وزهران، وشهران، وقحطان، في بعض مراحلها التاريخية.

وقد كان طلابهما يدرسون علوم الدين وعلوم العربية والأدب، والحساب إلى غير ذلك من العلوم.

أما بقية (الكتاتيب) وهي ما يُسمّى في ألمع:

(المعلامات، واحدتها معلامة)، فقد كانت منتشرة في التجمعات السكانية، والقرى، وهي ـ في الغالب ـ ملحقة بالمسجد، وربما استحسن لها أهل القرية مكانًا آخر، فتكون في ظل شجرة وارفة، أو نحو ذلك، ويقوم على تعليم الطلاب إمام المسجد، وخطيب الجمعة، فيجتمع له من المكانة ما لهؤلاء من القدر والمنزلة، وله ـ فوق ذلك ـ هيبة كبيرة، في قلوب التلاميذ، إذ يقوم التعليم على العقاب، فطبيعة الحياة كانت تقوم على مبدأ «لا ينال العلم إلا راهبٌ أو راهب» وبناءً على هذه المعادلة القاسية، كان العقد الشّفوي وأحيانًا المكتوب ينص على قول الأب لمعلم الكتاب: «لك اللحم ولنا العظم» ولا يخفى ما يحمل هذا التقسيم من إطلاق ليد المعلم، غير أن في الآباء من يشفق على كرامة ولده، فيقيد الأمر بألا يضرب وجه ولده، ويوجز ذلك في عبارة مسجوعة، يقولها وهو يسلّم ولده للمعلم: «اسلخ الجلد ولا تلطم الخد»، وكان المعلمون في المعلامات (الكُتَّاب) يركزون على القراءة والكتابة، فمتى استطاع الدارس أن يقرأ القرآن كاملًا، وأن يكتب ما يُملى عليه، فإنه بهذا قد وصل إلى نهاية المطاف، وتحقق الهدف العام للالتحاق بالمعلامة.

استمر التعليم بالطريقة القديمة: (المعلامة) حتى نهاية الثمانينيات الهجرية الستينيات الميلادية، في كثير من قرى المحافظة، إذ لم يتيسّر للجميع الالتحاق بالمدارس الحكومية، لبعد المسافات، ولكون المدارس اقتصرت ـ إلى ذلك التاريخ ـ على التجمعات السكانية الكبيرة (بلدة رجال، بلدة البتيلة، بلدة الشعبين، بلدة الجرف)، ومنذ مطلع التسعينيات انتشرت المدارس الحكومية في القرى، بشكلٍ هيأ الالتحاق بها والاستغناء عن الطريقة التعليمية القديمة.

التعليم الحكومي

دخلت رجال ألمع ضمن منطقة عسير تحت راية الموحد الملك عبد العزيز، عام 1338هـ/ 1919م، بعد أن كانت الجزيرة العربية تعيش شتاتًا، وفرقة تتقسمها القبائل والإمارات، حتى اتحدتْ هذه الأجزاء التي تكوَّنت منها الدولة السّعودية، وأُعلنت دولةً واحدة باسم المملكة العربية السّعودية، سنة 1351هـ/ 1932م، وبعد ذلك بنحو ثمان سنوات، وتحديدًا في يوم الأحد 24/ 11/ 1359هـ الموافق 23/ 12/ 1940م عرفتْ رجال ألمع التعليم الحكومي، ففي هذا اليوم تم افتتاح مدرسة رجال ألمع الابتدائية، في بلدة

رُجال، على يد الأستاذ محمد عمر توفيق، صاحب كتاب (في ربوع عسير)، وهو من روّاد التعليم الأوائل قَدِمَ من مكة إلى مدينة أبها في تلك السنة، ليعمل مديرًا لمدرسة رجال ألمع، (حسان بن ثابت فيما بعد)، وبرفقته قدم من مكة أيضًا، الأستاذ عيسى فهيم، فعملا معًا في مدرسة رجال ألمع. وقد شاركهما في العمل فيما بعد الأستاذ مصطفى صبري، وفي اليوم الأول بلغ عدد الملتحقين بالمدرسة الوليدة نحو ستين طالبًا، قُسِموا حسب ما حصّلوه من معارف في الكتاتيب، إلى فصلين يمثلان الصف الأول والصف الثاني. ويشير هذا الإقبال الكبير من أنحاء متفرقة من بلاد ألمع ـ برغم مصاعب الحياة، وضنك العيش، ووعورة الطرق ـ إلى الرغبة الجامحة في طلب العلم، وما تمثله المعرفة من أهمّية في وجدان الألمعيّين، كما يشير إلى أن هذه المدرسة قد جاءت بعد طول انتظار، وفي مسيس حاجة.

وتعتبر مدرسة رجال ألمع، (مدرسة حسان بن ثابت فيما بعد)، المدرسة الثانية في منطقة عسير بعد مدرسة أبها التي افتتحت سنة 1355هـ/ 1936م.

وبقيت مدرسة رُجال المدرسة الوحيدة في رجال

ألمع نحو ثلاث عشرة سنة، حتى أُفتتحت مدرسة البتيلة (زيد بن ثابت) عام 1372هـ/ 1952م، ثم مدرسة مندر العوص (عبدالله بن مسعود) عام 1375هـ/ 1955م، وتبعتها مدارس عدة، ثم افتُتِحتْ أول متوسطة في بلدة رجال ملحقة بابتدائية رجال عام 1388هـ/ 1968م، ثم تتابع افتتاح المدارس، في مراحل التعليم المتوسط، ثم الثانوي، بما في ذلك معهد للمعلمين، تخرج فيه كثيرٌ من أبناء المحافظة الذين اضطلعوا بمهمة التعليم فيما بعد.

المعهد العلمي برجال ألمع

من روافد التعليم في محافظة رجال ألمع، المعهد العلمي، الذي افتُتح عام 1398هـ/ 1978م، وتخرج فيه حتى اليوم نحو (900 طالب) في دفعات متتالية. وقد تعاقب على إدارته ثلاثة من الأساتذة الفضلاء، هم الأستاذ عبدالله بن عواض الألمعي، ثم الأستاذ محمد بن الحسين الزمزمي، ثم الأستاذ الحسين بن إبراهيم يعقوب[1]، الذي ما يزال يقوده حتى اليوم، في نخبة ممتازة من المعلمين، الذين مرَّ أكثرهم على مقاعد الدراسة في المعهد نفسه. وقد

(1) توفي رَحِمَهُ اللَّهُ في (24 ذي القعدة 1434هـ ـ 29 سبتمبر 2013م).

شملته ـ مع بقية المعاهد العلمية التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ يدُ التطوير في المناهج والأساليب، فأُضِيفت إلى مقرّراته، مواد علمية وتطبيقية، وأصبح بوسع المتخرجين في المعاهد أن يلتحقوا بالكليات العلمية والتطبيقية.

افتتاح إدارة التربية والتعليم

منذ افتتاح مدرسة رجال ألمع عام 1359هـ/ 1940م كان الإشراف على هذه المدرسة وعلى بقية المدارس التي افتتحت بعدها، من قِبل إدارة التعليم بأبها، واستمر الحال كذلك حتى منتصف عام 1405هـ/ 1985م حيث صدر قرار افتتاح إدارة التربية والتعليم بمحافظة رجال ألمع، وعُيِّنَ الأستاذ عبد الخالق بن سليمان الحفظي مديرًا لها منذ افتتاحها حتى تقاعده في 1427هـ/ 2006م. وقد كانت له بصماتٌ واضحة على التعليم في المحافظة، خلال اثنين وعشرين عامًا أمضاها على رأس الهرم التعليمي في المحافظة، استكملتْ خلالها الإدارةُ بنيتها الأساسية من الناحية العمرانية، والتجهيزات التعليمية، وخلالها أُنشئ مبنى إدارة التربية والتعليم ومرافقها الحيوية.

ثم تولى قيادة إدارة التربية والتعليم الأستاذ الحسين بن سليمان الحفظي، الذي قاد التربية والتعليم بالمحافظة. بعد أن كان ساعدًا أيمن لمدير التربية والتعليم منذ افتتاح الإدارة، وقد بقي مديرًا للتربية والتعليم، ثلاث سنوات، ما بين عامي (1427هـ/ 2006م، و1430هـ/ 2009م).

ثم تولى قيادة إدارة التربية والتعليم الأستاذ هاشم بن علي الحياني، ابتداءً من 1430هـ/ 2009م. وما زال يقود التربية والتعليم بالمحافظة[1]، وقد تنقَّل قبل ذلك في مواقع إدارية وتربوية عدة في إدارة التربية والتعليم، قبل أن يتسنَّم موقع القيادة منها.

وخلال هذه السبع والعشرين سنة، منذ افتتاح إدارة التربية والتعليم في محافظة رجال ألمع، جرى تنوُّع في خدمات التعليم، وأُقِيمتْ مشاريع تعليمية على طراز حديث، بعد أن كانت المدارس في مبانٍ متواضعة، مستأجرة، ووفِرَتْ وسائل نقل للطلاب، تكفي أهلهم مؤونة نقلهم من وإلى مدارسهم.

(1) كان ذلك يوم نشر المقال، وقد انتقل الأستاذ هاشم الحياني إلى محايل عسير مديرًا لإدارتها التعليمية، وخلفه الأستاذ علي بن عوضة، عام (1432هـ ـ 2012).

ونلحظ الأثر الكبير لوجود إدارة التربية والتعليم، من خلال المقارنة الإحصائية بين ما كانت عليه مدارس المحافظة عند افتتاح الإدارة، وما آلت إليه، لنشهد البون الكبير: فقد كان عدد المدارس عند افتتاح الإدارة التعليمية (81 مدرسة لمراحل التعليم العام، ومعهدًا واحدًا لإعداد المعلمين).

بينما بلغ عدد المدارس خلال العام 1431هـ/ 2010م (128 مدرسة) منها (93 مدرسة لمراحل التعليم العام، و14مدرسة للتحفيظ، و11 مدرسة للتربية الخاصة) إضافة إلى نحو 30 مدرسة لمحو الأمية، وخمس مدارس لتعليم الكبار، للمرحلتين المتوسطة والثانوية.

تعليم البنات

وفي هذا العام (1431هـ/ 2010م) أُلحق تعليم البنات بتعليم البنين من الناحية الإدارية، فأصبح مدير التربية والتعليم يشرف بشكل مباشر على شؤون تعليم البنات، وهذا ما هيأ لكثير من التجديد والإصلاح في تعليم البنات، لقرب متخذ القرار، علمًا بأن تعليم البنات في المحافظة قد بدأ بافتتاح مدرسة البنات الابتدائية في بلدة رجال عام 1388هـ/

1968م، وتكونت عند افتتاحها من (4 معلمات) كلُهنَّ معاقدات، و (56 تلميذة)، وتخرجت الدفعة الأولى من هذه المدرسة في عام 1393هـ/ 1973م، وحقّقت إحداهن الترتيب الثالث على مستوى المنطقة الجنوبية، ثم توالى افتتاح المدارس، فافتُتِحت مدرسة الشعبين للبنات عام 1389هـ/ 1969م، ثم مدرسة الجرف الابتدائية للبنات عام 1393هـ/ 1973م، ومدرسة البتيلة للبنات عام 1394هـ/ 1974م، ثم مدرسة وادي العوص الابتدائية عام 1395هـ/ 1975م، ثم متوسطة الشعبين للبنات عام 1397هـ/ 1977م، ثم معهد لإعداد المعلمات عام 1401هـ/ 1981م، ثم ثانوية رُجال للبنات، عام 1402هـ/ 1982م، التي أُلحقت بمتوسطة رجال، ثم ألحقت بمتوسطة الشعبين مدرسة ثانوية عام 1408هـ/ 1988م. وهكذا نَمَتْ مدارس البنات في المحافظة بشكلٍ مُطَّرِدٍ، حتى لم تكد تخلو قرية من مدرسة، ووفرت وسائل لنقل الطالبات من القرى التي ليس بها مدارس إلى قرى مجاورة. وخلال ثلاثٍ وأربعين سنة منذ افتتاح أول مدرسة للبنات بمحافظة رجال ألمع، نجد أن مدارس البنات بالمحافظة قد جاوزت التسعين مدرسة، مشتملة على مدارس التعليم العام،

ومدارس تحفيظ القرآن، ورياض الأطفال، ومراكز محو الأمية، ومجتمع بلا أمية، يعمل بها نحو 730 معلمة وإدارية، ويدرس فيها ما يزيد على 6240 طالبة. وقد افتتح في المحافظة أربعة معاهد للمعلمات، في بلدة الشعبين، وبلدة الحبيل، وجبل غمرة، وقرى حسوة، وقد ساهمتْ هذه المعاهد الأربعة في تخريج دفعات متتالية من المعلمات، ثم أُغلقت هذه المعاهد بعد اكتفاء المحافظة بمعلمات المرحلة الابتدائية، ويشرف على هذه المدارس مكتب إشراف تربوي، تأسس عام 1405هـ/ 1985م، ويدير العمل الإشرافي التربوي فيه نحو ثلاثين مشرفة تربوية، وترأسه منذ تأسيسه الأستاذة: محسنة إبراهيم عيسى الألمعي، التي اضطلعت بمسؤولية إدارة مكتب الإشراف منذ عام 1410هـ/ 1990م، وما تزال[1]، وقد توِّج عملها الدؤوب وإنجازاتها الملحوظة بتعيينها مساعدةً لمدير التربية والتعليم لشؤون تعليم البنات في المحافظة.

كما أن خرّيجات الكليات والجامعات ملأن ما تبقى من احتياج في المرحلتين المتوسطة والثانوية. كما

(1) يوم كتابة المقال، عام 2010م.

افتُتَحتْ كلية المجتمع للبنات بالمحافظة عام1429هـ/ 2008م، وتشتمل على قسمي (تقنية العلوم الطبية، وعلوم الحاسب)، وهناك خطط لافتتاح أقسام أخرى.

وقد كان هذا التطور الملموس في تعليم البنات بمحافظة رجال ألمع تحت إشراف مندوبية تعليم البنات التي افتُتِحتْ سنة 1390هـ/ 1970م، وتعاقب على رئاستها كلٌّ من الشيخ علي الجبيري، ثم الشيخ علي إبراهيم سراحي، ثم الشيخ أحمد محمد فائع البريدي، ثم الشيخ يحيى الحسن حمود، ثم الأستاذ/ أحمد بن محمد القرم، ثم الأستاذ علي بن محمد عجلان، الذي استمر في إدارتها حتى ألحقت في منتصف هذا العام (1431هـ/ 2010م) بإدارة التربية والتعليم برجال ألمع. كما ساند مندوبية تعليم البنات بمحافظة رجال ألمع، مندوبية البنات بقرى حسوة التي افتُتِحَتْ عام 1404هـ/ 1984م، وقام على إدارتها الشيخ محمد بن أحمد حسن، الذي استمر حتى عامنا هذا.

وخلال السنوات السبعين من التعليم النظامي في محافظة رجال ألمع تخرج في مدارس المحافظة آلاف الطلاب والطالبات، وأصبح من أبناء المحافظة وبناتها عشرات الأساتذة والأستاذات في كل الجامعات،

والأطباء والطبيبات في مستشفيات المملكة، ومبدعونَ ومبدعات، وأدباء وأديبات، وكتّاب وكاتبات في كل المجالات، وناجحون وناجحات في كل الميادين.

قيادة وريادة

ولا ينبغي أن ينسى من يتناول مسيرة التعليم في محافظة رجال ألمع ما للمعلمين الروّاد من فضل، في نقل التعليم من مفهومه القديم إلى مفهومه المعاصر، فإضافةً إلى من ذكرنا، من المعلمين الذين كان لهم الفضل ـ بعدالله ـ في افتتاح مدرسة رُجال الابتدائية، عام 1359هـ/ 1940م، فهناك من تسلم منهم القيادة، ولحق بهم في الريادة، وعلى رأس أولئك الشيخ محمد (الهلالي) بن إبراهيم بن زين العابدين، الذي أدار مدرسة رُجال بعد افتتاحها لسنوات، وهو صاحب كتاب (نفحات من عسير) والشيخ الحسن بن علي الحفظي الشاعر والأديب، الذي أمضى في التعليم نحو أربعين سنة، والأستاذ محمد بن إبراهيم بارزيق، أول مدير لمدرسة زيد بن ثابت بالبتيلة، التي افتُتحت عام 1372هـ/ 1952م، والأستاذان عبدالله بن محمد قاسم، وإبراهيم بن محمد الصغير؛ كلُّ أولئك وغيرهم تحملوا مشقّة الريادة، وبذلوا جهدًا كبيرًا، في سبيل تخريج

دفعات من الطلاب، الذين اضطلعوا فيما بعد بمهمةِ إتمام ما بدأه هؤلاء الرواد الأجلاء.

❖ **من مراجع هذه الورقات**

* آفاق تعليم ألمع، الإعلام التربوي، إدارة التربية والتعليم، العدد الأول، 1430هـ/ 2009م.
* آفاق تعليم ألمع، الإعلام التربوي، إدارة التربية والتعليم، العدد الثاني، 1431هـ/ 2010م.
* أسماء وآراء في التربية والتعليم، إبراهيم بن محمد شحبي، مطابع الجنوب، أبها، 1422هـ، 2001م.
* تعليم الفتاة الألمعية.. مسيرة ونماء، من إصدارات مكتب الإشراف التربوي (بنات)، 1431هـ/ 2010م.
* تهذيب لسان العرب لابن منظور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993م.
* جبال وأجيال، من إصدارات إدارة التربية والتعليم بمحافظة رجال ألمع. (د.ت.ط).
* خطوات تعليم الألمعية، إعداد: رحمة حمود

رزقان، من إصدارات مندوبية تعليم البنات برجال ألمع، 1420هـ/ 2000م.

* دليل منطقة رجال ألمع التعليمية، من إصدارات إدارة التربية والتعليم بمحافظة رجال ألمع، (د.ت.ط).

* رجال ألمع.. الأرض والإنسان والتاريخ، أحمد إبراهيم مطاعن، 1408هـ/ 1988م.

في مدرسة القرية
كانت لنا أيام(*)

كان صباحًا بهيجًا وغريبًا ذلك اليوم الذي أيقظوني فيه مبكرًا لأن أبي سيأخذني إلى المدرسة التي لا أعرفها ولكنها شيءٌ جديدٌ، ولكل جديد لذة، ـ كما يزعمُ الحطيئة ـ على غير العادة ناولتني أختي[1] ثوبي، وثبتت الغترة البيضاء على رأسي، فظننتها من ضرورات الشيء الذي يسمّونه المدرسة، ركبت السيارة أيضًا لأول مرة، ولم يكن الطريق وصل إلى بيتنا، فسرنا على الأقدام كيلين تقريبًا ثم

(*) مجلة **المعرفة**، العدد (188) ذو الحجة 1431هـ ـ نوفمبر 2010م، ص.ص (120 ـ 121). والعنوان على نحو عنوان كتاب أنيس منصور: (في صالون العقاد كانت لنا أيام). وقد ألحقت هذه المقالة بالطبعة الثانية من كتابي (عندما كان الكبار تلامذة)، ص ص (273 ـ 278) غير أنني رأيت أن مكانها الأليق هنا.

(1) كانت أختي الكبيرة (عائشة حفظها الله) تقوم بدور الأم، رغم صغر سنها، فقد كانت أمي ـ رحمة الله عليها ـ محتجزة في مستشفى الأمراض الصدرية، لأربعة أشهر.

أخذنا أحدهم في سيارته، أدهشتني الأشجار التي تسير نحونا ثم تجاوزنا إلى الوراء، لم أتنبه أنها السيارة التي تسير، رأيت بيوتًا وأشجارًا تركض في الاتجاه المعاكس كان منظرًا مثيرًا لدهشتي، تركني أبي في المدرسة بعد أن تحدث قليلًا مع رجلٍ كبير، عرفت فيما بعد أنه فراش المدرسة، أخذني بيدي وأجلسني في غرفة مع مجموعة من الصغار، لا أدري أين ذهب أبي وسائق السيارة.

أعطونا كتبًا مليئة بالرسومات فرحت بها كثيرًا برغم شعوري بالغربة المخيفة وكثرة الوجوه الجديدة التي اقتحمت عينيَّ هذا الصباح، حملتُ كتبي واتجهتُ إلى معلم يلبس (بنطلونًا) وقميصًا يجلس على كرسي دوار في فناء المدرسة، فقلتُ له: (أبغى أروح)؟ قال: (هات الكرسي وتعال) مشيرًا إلى الكرسي الضخم الذي يجلس عليه، وقام متّجهًا إلى إحدى الغرف، عرفت فيما بعد أنها الإدارة، فكرت كيف أحمل كرسيًا أضخم مني، ثم اهتديت إلى طريقة، استطعت بها أن أزحزح الكرسي الضخم من مكانه، فوضعت رأسي على مقعد الكرسي، وأمسكت بذراعي الكرسي وقلبته على رأسي، ثم استدرتُ باتجاه باب الغرفة وسرت بخطوات متلكئة كأنما الكرسي يسير مقلوبًا فلا يكاد

يبدو من حامله شيءٌ. وضعتُ الكرسي في منتصف الغرفة، قال لي: مع السلامة.

خرجتُ من المدرسة وسرتُ باتجاه بيتنا ستة أكيال، تحت وهج الشمس، في صراع مع الغترة التي لَم يألفها رأسي بعد.

كان المعلِّم الذي أذن لي بالأمس معلمنا في الصفين الأول والثاني، كان معلمًا فلسطينيًا أنيقًا، جميل الخط، علمنا جميع دروس الصف الأول الابتدائي والثاني، وكنت أهابه وأكاد أحبُّه، لولا هنات ليست هينة في مقاييس التربية، وإن عددتها يومئذ كذلك، من ذلك أنه كان يفضِّل بعض الطلاب عليَّ، فلم يكن لي أن أكون في المرتبة الأولى حتى جاوزت الصفين اللذين درسنا فيهما.

ومما صرف قلبي عنه برغم أن حب المعلم في وعينا من الواجبات، أنه استوقف الطابور الذي كنت في مقدمته يومًا، بعد انصراف بعض الصفوف، وتقدَّم إليَّ ثم رفع طاقيتي من فوق رأسي، وتساءل على مرأى من المعلمين والطلاب قائلًا: أهذه طاقية طالب متفوق؟! وكانت فعلًا غير نظيفة، ثم سألني: أأنت يتيم؟ وفهمت أن اليتيم من لا أم له، فلا علاقة للأب

بنظافة الطاقية، فأجبتُ: أمي في المستشفى ـ وقد كانت ـ رحمة الله عليها ـ منذ بداية العام في المستشفى ـ فأعادها إلى رأسي، وأشار لي بالسير، وكنت في مقدمة الطابور، فَقِدْتُ زملائي إلى الفصل وأنا أشعر أن العيون تنهشني، ثم جلست وعجبت أن زملائي لم يعلقوا على عدم نظافة طاقيتي، هل كان تعاطفًا منهم؟! ربما.

وموقف آخر حدث لي مع هذا المعلِّم، كنت المذنب فيه ولكن العقوبة كانت أكبر من الذنب، وكان يمكن معالجته بكلمة، ذلك أنه دخل الفصل بعد الفسحة التي نتناول فيها فطورنا، وكان أحد زملائي ـ رحمه الله ـ يأكل بسكويتًا بالسمسم، فوضعه في الدرج وكنت أجلس خلفه مباشرة، فرأيت البسكويت، فقضيت الحصة أنتظر خروج المعلم من الصف لأنال المكتوب من هذه الغنيمة، وقاربت الحصة الانتهاء، وتوثّبت للانقضاض على درج زميلي، وسمعت صوت الصافرة ـ وكانت الصافرة علامة بداية ونهاية الحصص لعدم وجود الكهرباء ـ وكانت إحدى عينيَّ على البسكويت والثانية على الأستاذ، وعندما خطا بإحدى قدميه خارج عتبة الفصل ولمَّا تزل الأخرى في الصف مددتُ يدي من على كتف زميلي وقبضت على

البسكويت وقبل أن أسحبها أمسك بها زميلي وصرخ صرخة دوت في أرجاء المدرسة، فاستدار الأستاذ ليراني متلبسًا بالجرم الذي لا أعرف كيف تورطتُ فيه. فتحت أصابعي ليأخذ زميلي ما علق بكفي من البسكويت، على مرأى من الأستاذ، ولم يُفلت زميلي يدي إلا في يد الأستاذ الذي قبض عليها ودار في غرف المدرسة يجرني خلفه يبحث عن عصا، فكانت تلك الخطوات التي سرتها خلفه أقسى عليَّ من كل عقوبة، وفي إحدى الغرف وجد مطرقة لها عصا خشبية طويلة، فأمسك بشماله كفي وثنى أصابعي إلى الخلف، وبيمينه أمسك بحديدة المطرقة وضرب كفي بعصا المطرقة حتى لم أعد أفرِّق بين ألم الضربة والتي تليها. وما كان جرمي يوجب هذه العقوبة بالغة القسوة. وكان مدير المدرسة شابًا أنيقًا وفاضلًا للغاية، ولكنه لم يكن ليعترض على مثل هذه الممارسة.

في الصف الثالث علَّمنا معلِّم من الطائف اسمه (حميِّد) وكان جادًا ومنظمًا في تعليمه، وفي الصف الرابع علمنا مجموعة من المعلمين، كان منهم أستاذ أردني خمسيني اسمه (محمود التكروري) لم أرَ قبله ولا بعده معلمًا في أبوته وعطفه ورقته معنا، في زمنٍ ندر فيه هذا الطراز، وقد بقيت أكاتبه سنوات بعد

رحيله. ومنهم الأستاذ (فياض) وكان فياضًا بالرجولة والحيوية فكان صوته يبلغنا من أي صف يدرِّس فيه، وكأنه لا يجيد الحديث الهامس، وقد رأيناه أنا وزملائي يومًا يبكي بكاءً مرًا، في فناء المدرسة، فعجبنا، فالرجال في وعينا لا يبكون، وعندما سألنا قالوا جاءه نبأ وفاة أبيه في رسالة تسلّمها من البريد توًا.. وغاب عنا يومًا أو يومين ثم عاد إلى سابق عهده وقد شاع في المدرسة أن النبأ غير صحيح، بل كان مكيدة ممن بعث الرسالة.

وفي الصف الخامس والسادس درَّسنا مجموعة من الشباب المتخرّجين حديثًا، ومنهم مدير المدرسة وهو شابٌ من الباحة، يبدو أنه تخرج قريبًا في معهد إعداد المعلمين، وكان لا يخلو من طيش، فلم يكن يستيقظ في بعض الأيام إلا عندما تحين حصة التجويد أو القرآن وقد تكون الرابعة أو الخامسة وكان سكنه إلى جوار المدرسة، وربما بدأت الحصة وقد شرع في التدخين، فيدخل الصف بدخينته، وربما صحح التلاوة بين نفس من دخينته وآخر، ونحنُ ننظر إلى حركة الدخان يعلو باتجاه سقف الخيمة، حيثُ كنا ندرس في خيام نُصبت إلى جوار المدرسة عندما قررت لجنة من إدارة التعليم أن المبنى الحجري آيل للسقوط.

ومن الطريف أن أحد هؤلاء المعلمين كان يدرسنا الجغرافيا، وكان الدرس السابق عن الإمارات العربية المتّحدة، فسأل: من يعرف في أي الإمارات تقع رأس الخيمة؟ فتسابقنا للإجابة، فاختار واحدًا من الذين رفعوا أيديهم، فأشار إلى رأس الخيمة التي ندرس فيها، فلم نتمكن من الضحك، إذ هوت يد المعلم على وجه الطالب وعيناه معلقتان جهة رأس الخيمة، ثم لم يُجب أحدٌ منا عن هذا السؤال بعد، ولكننا تندرنا على زميلنا بقية العام.

هذه خواطر تلميذ مرَّ بمقاعد المدرسة الابتدائية منذ نحو ثلاثين سنة[1]، لعلَّ من طلابنا من يقرأها فيتصوَّر الفرق بين مدارسنا ومعلمينا ونحن وبين طلاب اليوم ومعلميهم ومدارسهم.

(1) يوم كتابة المقال، عام 2010م.

المعلم.. في غربال الذاكرة(*)

المعلِّم يؤدّي رسالة عظيمة، ويحمل أمانة ينوء بها حاملوها، وهل هناك أعظم أمانة من الأفكار والمعلومات، قوت القلوب وزاد العقول، إن المعلم ـ أيَّ معلِّم ـ يدرك ذلك جيدًا، سواء ترجمَ هذا الإدراك إلى واقع يحياه ويحيا به، أو حجبته سُجفُ التجاهل والنسيان.

ومع هذا فهو شاكي الحرمان دائمًا، وقديمًا قال المعري:

إن المعلِّم والطبيب كليهما
لا ينصحان إذا هما لم يُكرما

ولست أدري حقيقة الشكوى التي تلازمنا معشر

(*) مجلة **المعرفة**، العدد (85)، تموز/يوليو 2002م، ص.ص (48 ـ 54). وقد ألحقت هذه المقالة بالطبعة الثانية من كتابي (عندما كان الكبار تلامذة)، ص.ص (261 ـ 272) غير أنني رأيت أن مكانها الأليق هنا.

المعلمين، فمنذ أن ردَّ (طوقان) مديحة (شوقي) عليه، تخلى أكثر الشعراء المعلمين عن (شوقيتهم) وتحولوا إلى (طوقانيين) يندبون حظهم، ويباهون بعطاءاتهم فمن قائلٍ:

ظمآن تورده الحياةُ سرابَها
والجيل كلُّ الجيل من وراده
تلقاه طول الدهر يغرس جوهرًا
ومرارة الحرمان كلُّ حصاده

إلى قائلٍ:

وأحملُ يا سلمى نصابًا مروعًا
تخور القوى منه وينقطع الظهرُ
نصابًا له عمرٌ مديدٌ كأنما
هو الدهر لا يبلى ولا ينقضي العمرُ

إلى قائلٍ:

تجاهلٌ يا أبا العلياء ذوَّبنا
أسىً وألهبنا حزنًا وأبكانا

وهكذا ينعى الطوقانيون أنفسهم، ويعدونها جحود التلاميذ:

يا موقد القنديل نبض فؤاده
احذر فؤادك واحذر القنديلا

وكأني بهؤلاء جميعًا يرددون وراء قائدهم (طوقان) قوله:

لو جرَّبَ التعليمَ (شوقي) ساعةً
لقضى الحياة شقاوةً وخمولا

وبرغم قِدَم شكوى المعلمين فلم يكن التعليم النظامي معروفًا بالمفهوم العصري في المملكة قبل عام 1344هـ/ 1925م، إذ في هذا العام أمر الملك عبد العزيز بإنشاء أول مديرية للمعارف، وفي العام الذي يليه افتُتِحَ المعهد السعودي بمكة المكرمة ليكون أول مؤسسة حكومية تربوية في المملكة لما فوق المرحلة الابتدائية.

ولم يكن هناك بدٌّ من استقدام المعلمين من البلاد العربية الشقيقة التي سبقت في ميدان التعليم، وعلى أيدي هؤلاء الأشقاء بدأ التعليم ينتشر على وجه الخريطة السعودية.

وقد كان التعاقد مع معلمين من الدول العربية أمرًا مألوفًا وفق أجندة أعمال مديرية المعارف، ومن بعدها وزارة المعارف التي أُنشئت عام 1373هـ/ 1954م.

وقد كان للأشقّاء العرب مساهمتهم في انتشار التعليم في المملكة، فقد تعلمتْ على أيديهم أجيال تلو

أجيال، حتى اعتاد الطلاب أن تقترن كلمة (أستاذ) بذلك المعلم المصري أو الشامي وربما السوداني، وفي البدايات لم تكن تلك الوجوه مألوفة للصغار، فصارت وجهًا آخر للمدرسة، سرعان ما يألفونها كإلفهم المدرسة، إذ قلما يوجد معلم سعودي وخصوصًا في الأرياف والمناطق البعيدة عن الحواضر، وكلما علت المراحل ندر وجود المعلم السعودي، وإن وجد فإنه يكون غريبًا في عيون تلاميذه.

وقد كان المعلِّم مرجعًا في مادته، وليس من المستساغ أن تمر كلمة (لا أدري) على لسانه، فما جاء من وراء الحدود إلا وهو قادرٌ على التصدي لكل تساؤلات التلاميذ، وقد كانت الأسئلة على صعوبة مخاضها لا تندُّ كثيرًا عن أجواء المقرر، فلم يكن أمام التلاميذ نوافذ للمعرفة سوى المدرسة بمعلميها ومقرراتها التي هي مصدر تنوير للقرية أو الحي، وربما للمدينة بأسرها، يُشار للمنتمين إليها بالبنان، طلابًا، ومعلمين، وربما يكون معلم المدرسة مفتيًا للقرية، يستفتيه الناس في مسائل العبادة والمعاملة، وربما يستفتونه في مسائل لا صلة لها بالفقه. أما اليوم فقد تعدّدت مصادر المعرفة ونوافذ المعلومات، بحَسَنِها وقبيحها، وتأتي وسائل الإعلام على رأس تلك

المصادر، التي أدَّتْ بدورها إلى تلاشي تلك الحظوة، وذلك الوهج اللذين كان يُحاط بهما المعلم، وقد جاءت تلك الوسائل لتساهم بدورها في تبديد ما بقي من هيبة المعلم، حتى بات كثير من الطلاب اليوم لا يرى معلميه سوى جسورٍ يعبر من خلالها إلى شهادة؛ يخطو بها من مرحلة إلى مرحلة.

ومما كان يستوقف التلاميذ، ويثير فضولهم، هيئات المعلمين وملابسهم، فقد كانت تشغل الطلاب خصوصًا في أول عهدهم بالمدرسة، حتى ليكاد يرتبط العلم في أذهانهم بالبنطال والجاكيت، وحتى ليكاد يكون كل من لبسهما أستاذًا فلم يكن العمال (الذين يلبسون هذا الزي) منتشرين كحالهم اليوم.

ومما أتذكره من حالنا مع معلمينا ـ رحم الله من مضى منهم ورعى من بقي ـ أننا كنا نعجب من بياض بشرتهم، ومن لحاهم المحلوقة، وتلك عادة لم تكن مألوفة في مجتمعنا الريفي.

وكانت دهشة التلاميذ لا تنقضي أمام حديث معلميهم عن مخترعات ومكتشفات لم يسمعوا بها من قبل فضلًا عن أن يروها، فيترددون في تصديق أن هناك جهازًا يُسمى (التليفون) يمكن بواسطته أن يتحدث الإنسان مع أناس في بلدٍ آخر، ويتطرق الحديث إلى

جهاز (التلفزيون) الذي يرى الإنسان فيه مشاهد حية، وأشخاصًا يتحركون ويتكلمون، فينظر الطلاب بعضهم إلى بعض وفيهم من تُلزمه ثقته بما يقول معلمه بالتصديق، وفيهم مُكذبٌ يحول الحياء وهيبة المعلم بينه وبين الإفصاح عن شكوكه. ولا غرابة أن تكون الحال كذلك وفي هؤلاء الطلاب من درس موضوع (البراد المنزلي) وتجاوز عامًا دراسيًا كاملًا، وهو يعجب لهذه المزايا يدرسها في المقرر ولم يكتشفها في (البراد) الذي يتناول فيه الشاي مع أسرته عندما يعود من المدرسة، وما ذلك إلا لأنه كان يظنه المقصود بهذا الدرس المقرر، ومن عرف حياة الريف وتلقائية أهله لم يستنكر هذه المفارقات.

وكان الطلاب يحاولون تقليد لهجة معلميهم فيكونون مثارًا لضحك زملائهم وسخريتهم، كما استطاع بعض المعلمين أن يحاكي لهجة تلاميذه، ولكنه في الغالب يقع في مزالق تضحك منه طلابه فيتدخلون للتصحيح لتتحول الحصة من درس في التاريخ إلى حوار في اللهجات، كان الطلاب ـ وخصوصًا الكبار منهم ـ يسرّهم هذا المزلق الجميل الذي يستطيعون استدراج بعض معلميهم للوقوع فيه، بينما يحول حزم وفطنة آخرين بينهم وبين ذلك.

وليس لانبهار الطلاب بمعلميهم الأزهريّين حد، إذ يتحدثون في الغالب لغة فصيحة ويفخمون الحروف وخصوصًا الراء، ويشدّدون على مخارج الحروف، وأعجب من ذلك كله تلاوة بعضهم القرآن بصوت عذب رقيق. وقد ناب عنهم في ذلك أجهزة التسجيل ومكبّرات الصوت عندما وزِّعت على المدارس، ولا أنسى رعشة السحر التي تملكتني عندما أشرفتُ على المدرسة من تلٍّ قريب بعد سيري وزملائي ستة أكيال على الأقدام، فمحا ذلك كلَّه صوتُ (القارئ الشيخ عبد الباسط عبد الصمد رَحِمَهُ اللَّهُ) وهو ينبعث من مكبر الصوت الذي يعلو سقف المدرسة، وتلك عادة أراها حسنة؛ أن يُصدح بالقرآن الكريم في جو المدرسة بين الحين والحين، فلذلك في نفوس الطلاب أثرٌ لا أظنه يزول، ولو حجبته سحائب الغفلة حينًا، ولا ينقطع عجب التلاميذ من معلميهم الأزهريّين، فقد عُرفوا بسعة الاطلاع والجلد على القراءة والبحث، ثم إنهم يقدمون دروسهم بجدٍّ لا يجد الطلاب معه مفرًا من أن يستفيدوا ويتعلموا، ولأنهم يلبسون الثياب أو ما يشبهها، ويسدلون الغترة البيضاء على أكتافهم، حتى لكأن هذا هو الزي الشرعي وما سواه فلا.

ومضت أجيال من الطلاب يتعلَّمون على أيدي

أساتذة من مصر والشام، قبل أن تصافح عيونهم أستاذًا سعوديًا يلبس الغترة والعقال ويتحدَّث بلهجتهم أو بلهجة شبيهة بها، إذ كان المتخرجون من السعوديين لا يفون بحاجة المدن الكبيرة التي يتخرجون في معاهدها وجامعاتها، ثم إن أكثرهم عندما يأتي مدرسةً يُسند إليه أمر إدارتها، حتى ليكاد المعلم السعودي يكون بين طلابه غريب الوجه واليد واللسان ـ كما يقول المتنبّي ـ فلا ينسجمون معه انسجامهم مع بقية المعلمين، فما هو إلا واحدٌ منهم كان يومًا مثلهم، فأتم دراسته وأصبح معلمًا، وقد استطاع المعلمون السعوديون التغلب على تلك القناعات، بكثير من الجهد والإخلاص والصدق في احتواء طلابهم، حتى أصبحوا ملء سمعهم وأبصارهم، لما يحيطونهم به من عطف أبوي، ونصح صادق، وتفانٍ في تقديم كل شيء أمكنهم تقديمه.

ولكن الحضور اللافت للمعلِّم السعودي أفرز بمرور الأيام مفاهيم سالبة، عندما انتشر المعلمون السعوديون في المدارس وأصبح المعلمون غير السعوديين قلة، فأصبح أكثر الطلاب لا يهابون المعلم غير السعودي، وربما أساءوا إليه بنظرة عنصرية مقيتة، تحت تأثير العُجْبِ بالذات، وأنهم خيار الناس ومن سواهم في منزلة دون ذلك. وقد رأيت أثر ذلك في

نفوس أساتذة فضلاء اكتووا بنار تلك النزعة المقيتة، رأيت ذلك وأنا من بين طلابهم، ورأيته وأنا معلمٌ أقف إلى جوارهم موقف الند ومع ذلك أتعلم منهم وأعرف فضلهم، ثم أجد في طلابنا من لا يقدر لهم فضلًا ولا يُسلِّم لهم بمزية، وكل ذلك ربما يُنسبُ إلى طيش الفتيان، ولكن الذي لا يُغتفر هو ما رأيت من مواقف مديرين يتعاملون مع أساتذتهم غير السعوديين عند توزيع المهام والحصص وكأنهم معلمون من الدرجة الثانية، ومنهم من اشتعل رأسه شيبًا، فلم يشفع له سبق ولا فضلٌ ولا كبر سن.

ولكن الأمر الذي يكاد يكون عاملًا مشتركًا بين المعلمين سعوديين وغير سعوديين هو القسوة على الطلاب واتخاذ العقاب مبدأ للتعليم، وقد استطاعوا بالعقاب وبه وحده أن يصنّفوا الطلاب إلى طلاب حريصين على الدراسة يتحملون في سبيل الاستمرار صنوف المشقة، وطلاب يودعون المدرسة دون رجعة. ولم يكن هذا الأسلوب مستنكرًا للآباء فعهدهم بمعلِّم الكُتَّاب قريب؛ الذي كان يعتمد قبول التلميذ وفق مبدأ (لك اللحم ولنا العظم) وهكذا طَوَّر المعلمون مبادئ يعتبرونها من ضرورات المرحلة، كان أقساها (لا ينال العلم إلا راهبٌ أو راهب!!).

وقد كان المعلمون يتفنّنون في أساليب العقوبات، ولكن أقساها كان (الفَلَقَة) التي نصحّفها فنسميها (الفَلَكَة) وهي كلمة مولَّدة، يُراد بها عودٌ يربط بطرفيه حبلان تُمسكُ بهما القدمان للجلد. وإن لم يكن الضرب على القدمين (بالفلقة) فإنه يكون ـ غالبًا ـ على باطن الكف، وربما اشتدت العقوبة فكان على ظهر الكف، وربما كان بوضع مجموعة من الأقلام بين الأصابع والضغط عليها، والعقوبات تتنوع بتنوع المعلمين، فمنهم من يجرب كل أساليب العقوبات، ومنهم من يتخصص في أسلوب معين، وآخر يحدث لكل ذنبٍ عقوبة، وبعضهم كان يترك الأمر للحظة الانفعال، فربما هوت يده على وجه التلميذ، أو على ظهره، وربما شد بشعره وهزّه في كل الاتجاهات، وقد يتطور الأمر فيصل إلى حد الركل واللكمات، أو شد أذن التلميذ، ولا يزال في أذن أحد زملاء الدراسة والتعليم علامة واضحة منذ أيام دراسته الابتدائية، لظفر أستاذ ترك له عبر الزمن أثرًا، وحدّثني أحد تلاميذ تلك المرحلة أن أستاذهم كان يضع يد التلميذ تحت رجل الكرسي الحديدية، ويجلس عليه زمنًا يساوي حجم الذنب الذي اقترفه ذلك التلميذ، وفق تقدير المعلم / القاضي/الجلاد، ولا أنسى أن معلمًا ـ

سامحه الله ـ ضربني يومًا، وكنت في السنة الثانية الابتدائية، على كفيَّ بعصا المطرقة، وأتذكر أني بكيت عند الضربة الثانية، وجمد الدمع في عينيَّ بعد الثالثة.

ومع هذا الوجه القاسي لمعلمي تلك الأيام، فقد كان هناك وجهٌ آخر ملؤه الأبوَّة والشفقة والرحمة بالتلاميذ، والإخلاص في تعليمهم، ولو أردتُ أن أجد مسوغًا لقسوة المعلمين فإنني لن أجد إلا ما أسميه (مفهوم رسالة المعلم) فقد كان المعلم والمجتمع وقبل ذلك المسؤولون يقيسون نجاح المعلم أو فشله بمدى إتقان تلاميذه للعلم الذي يقدمه لهم، ولعلَّ هذا المفهوم امتداد لمفهوم رسالة معلم الكُتّاب، الذي كان يتقرر إنجازه لعمله تجاه طلابه أو أحدهم، بتمام حفظ هذا الطالب أو الطلاب للقرآن الكريم، أو لمتنٍ من المتون، وقد كان هذا المفهوم سائدًا ليس في الجزيرة العربية وحدها بل في كلِّ البلاد العربية والإسلامية، ولا نزال نتذكر قصة معلم الكتاب الذي ذكره طه حسين في (الأيام) وما تعرض له شيخ الكتّاب من توبيخ والد (طه حسين) عندما أخفق التلميذ في تلاوة ما ادعى إتمام حفظه، مما اضطره لإعادة تعليم تلميذه القرآن من جديد، فحكم عليه أولًا بالفشل، وبعد أن ثبت حفظ التلميذ، حكم بنجاحه، واستحقاقه المكافأة. وهنا نرى

دور الأب (ولي الأمر) في تقويم أداء المعلم، وكذلك قصة الأستاذ (أحمد السباعي) مع معلِّمه في الكتاب، ولذلك فحين يتندَّر بعض الشيوخ بقول آبائهم لمعلميهم: (لك اللحم، ولنا العظم) فإنه لا يقول ذلك تسليمًا للمعلم بهذه القاعدة، وإنما هي نوع من قطع الحجة على المعلم عندما يخفق في أداء رسالته، وهي في الوقت نفسه إزالة كل متكأ لتكاسل التلميذ، فهذه الجملة تضيف عبئًا آخر على معلِّم الأمس.

بينما أخذ التغير يدب إلى هذا المفهوم يومًا بعد يوم، حتى أصبح المعلِّم ربما يقنع من الغنيمة بالإياب، فتقدير أداء المعلِّم لم يعد مرتبطًا بمستوى تلاميذه بقدر ارتباطه، بتنفيذ التعليمات، واستسلامه للتعميمات، وتقيده بلوائح وأنظمة المدرسة التي يأتي على رأسها الحضور والانصراف، ولغة التفاهم مع مدير المدرسة ومشرف المادة، وحسن العلاقة بالتلاميذ، وكسب ودهم، ولو على حساب تحصيلهم، وهذا ما عرَّض به أحد المعلمين قائلًا:

ورضى المدير قضيةٌ مفهومها
أنَّ المدرس قد يصير جديرا
إن يرض عنكَ تجئك كلُّ رضيةٍ
والذنبُ صار ـ بعفوه ـ مغفورا

وإذا فشلتَ بنيل حُسنِ وداده
عشتَ الليالي ساهدًا مكدورا

أما المعلِّم الذي كانت هيبته تقرع قلوب طلابه، عندما يطل من باب المدرسة، فقد غاب عن ميدان التعليم اليوم، مع أن الأمر ليس أمر هيبة فحسب، بل هو متعلِّق أساسًا بمفهوم الرسالة، أما مسألة هيبة المعلِّم التي نرى المعلمين يندبونها منذ زمن فتلك قضية أخرى، وهي ليست ضحية منع الضرب، كما يظن بعض المعلمين، فالهيبة ـ في رأيي ـ ليست وجهًا آخر للخوف بل هي وجه آخر للاحترام، والاحترام لا يُجلبُ بالعصا، ولذا فهي ضحية لعددٍ من العوامل، يأتي على رأسها فقدان الرغبة في التعلُّم لدى أكثر الطلاب، وعدم إيمان بعض المعلمين بقدسية الرسالة، فيؤدونها على مضض، كأي وظيفة، ثم إن المعلم لم يعد في أنظار تلاميذه شخصًا مجللًا بالمثالية كما كان الطلاب سابقًا يرون معلميهم، فلم يكونوا يرون المعلِّم إلا في أحسن أحواله، أما اليوم فقد كُشفت أوراق المعلمين، فإذا بهم لا يختلفون كثيرًا عن بقية خلق الله، فلا تكاد تخلو أسرة من معلم، فيأتي التلميذ إلى المدرسة وقد عرف كيف يعيش المعلم تفاصيل حياته، بل ربما يرى هناته وما لا يليق من مثله، فيسقطها على

بقية المعلمين، وهكذا تساقطت هيبة المعلم، كحبات العقد واحدة تلو الأخرى، فأنى لمعلِّم يقضي عصر يومه في الملعب تحت أنظار طلابه، أوً معلم يقضي وقته وراء مقود سيارته يتجول في السكك والطُرقات، وآخر يراه تلاميذه داخلًا المقهى أو خارجًا منه، وآخر يقضي آخر يومه وأول ليله في معارض السيارات يزايد في أثمانها؛ أنى لهؤلاء جميعًا بهيبة كتلك التي يتجلل بها ذلك المعلم الذي لا يُرى إلا في مدرسته أو مسجده أو مكتبته.

ومع هذا فقد بقي وسيبقى كثير من المعلمين اليوم وغدًا وفي كل عصر يمتلكون قلوب طلابهم، لأن الطلاب ـ كل الطلاب ـ سكنوا قلوب أولئك المعلمين، فقط لأنهم طلاب، ولأن تلك القلوب أشربت رسالة التعليم، رسالة سامية لا وظيفةً للكادحين الذين يتعيشون بها حتى إذا أدركهم رزقٌ أوفر من طريقٍ آخر، قطعوا كل آصرة تربطهم بماضيهم في المدرسة ومع الطلاب والكتب والطباشير والألواح، فما أولئك بمعلمين، ما أولئك بمعلمين.

المعرفة..
المجلة التي ولدت مرتين(*)

عندما نُقِلْتُ عام 1998م للعمل في مدرسة زيد بن ثابت في بلدة البتيلة، وهي ثاني أقدم مدرسة في ألمع؛ كان أولُ ما لفتَ نظري غنى مكتبتها؛ مقارنةً بما عرفتُ من مكتباتِ المدارس، وتوفُّرها على النوادر من الكتب والمجلات، ويرجع ذلك إلى كونها ثاني أقدم مدرسة بالمحافظة؛ إذ كان افتتاحها عام 1952م، وبَقِيتْ زمنًا ثانية اثنتين من المدارس النظامية في المحافظة، ما جعل مكتبتها تتمدد بمرور السنوات، في ظل العناية الكبيرة التي كانت توليها وزارة المعارف للمكتبات المدرسية، يكشف لنا تلك العناية التنوّعُ في محتوى المكتبة، وتوفُّرها على أُمَّهاتِ الكتب، حتى أن بعض الكتب التي صدرتْ في عواصم الثقافة العربية

(*) مجلة **المعرفة**، العدد (200)، ذو الحجة 1432هـ ـ نوفمبر 2011م.

المختلفة؛ قد طُبعتْ طبعةً خاصة، وغُلِّفَتْ تغليفًا خاصًا بوزارة المعارف السعودية. وما تزال كتبُ تلك المرحلة قوامَ المكتباتِ المدرسية حتى اليوم؛ وهناك سببٌ آخر أعزو إليه غنى مكتبة المدرسة؛ وهو العناية الكبيرة التي كان يوليها المديرون المتعاقبون على إدارة المدرسة لمكتبتها، ما جعلهم يحرصون على تنمية المكتبة، والاستزادة من الكتب، والاشتراك باسم المدرسة في المجلات الثقافية والأدبية، التي كانت تصدر في تلك الفترة، ولا أدلَّ على ذلك من احتواء مكتبة المدرسة على الأعداد التي صدرتْ من مجلة المعرفة في عهدها الأول خلال عامي 1960م و1961م، وقد طُبع على غلافها قيمةُ اشتراك المدرسة السنوي في المجلة: «ريال واحد للنسخة في العام».

كنتُ إلى وقتِ اطلاعي على هذه الأعداد الستة الأولى من مجلة المعرفة؛ كنت إلى ذلك الحين أظنُّ صدورَ مجلة المعرفة مرتبطًا بعهد وزير التربية والتعليم الدكتور محمد الرشيد، ورئيس تحريرها الدكتور زياد الدريس، عام 1996م، ولكن هذه الأعداد كشفت لي أن مجلة المعرفة قد صدرتْ قبلَ ذلك بنحو أربعين سنة، على يد الشاعر سعد البواردي مع نخبة مختارة من الأدباء ومنهم الأديب الكبير عبدالكريم الجهيمان،

وصدر عددها الأول في مطلع عام 1960م. بتقديم من وزير المعارف وقتذاك؛ خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ.

ولِفرطِ سروري بهذه الأعداد قرأتها من الغلاف إلى الغلاف؛ فقد كانت عِلقَ مضنةٍ، لا يخفى ما بُذل من الجهد في سبيل إعداد مادتها وطبعها ونشرها، وقيمة الموضوعات التي ضمّتها، وأسِفْتُ لهذا الانقطاع الذي قارب الأربعين سنة، ولأنني المشرف الثقافي بالمدرسة، فقد أعددتُ شريطًا إذاعيًا عن المجلة، ونشأتِها، من خلال الموضوعات المنشورة في أعدادها، والقصائد والأناشيد التي كان أكثرها للشاعر سعد البواردي، قَدَّمَ الطلابُ مادة هذا الشريط في مسابقة النشاط الثقافي، وحقّق المركز الأول على مستوى الإدارة التعليمية. ودفعتني هذه الأعداد إلى متابعة المجلة في عهدها الجديد بمزيدٍ من الاهتمام؛ فقد أُعيدَ إصدارُها في وقتِ تَطَلُّع واحتياج، وجاءت محققةً للأماني؛ بما انطوت عليه من زادٍ ثقافي، وتربوي، ومتنفسٍ للمعلمين يبثّون على صفحاتها همومهم، وعبرها ينقلون تجاربهم التربوية؛ إضافةً إلى ما تتضمّنه من أخبار وتعليقات، ومقالات وتحقيقات، وملفات ولقاءات، واستطلاعات ومتابعات.

وفي عدد فبراير 1998م نُشر موضوعٌ للكاتب الدؤوب الأستاذ: أحمد العرفج، بعنوان: (السيد مطر)؛ أكَّد فيه أن المطر لا يأتي إلا بمعنى العذاب، إذ لم تَرِدْ هذه المفردة في القرآن الكريم إلا في سياق العذاب، وقد كان لي رأيٌ آخر في هذه المسألة، فرددتُ بمقالةٍ حشدتُ فيها الكثيرَ من الشواهد القرآنية والنبوية والشّعرية التي تدلُّ على أن المطرَ هو الماءُ المنسكبُ من السحابِ، وإن جاء وصفُ العذابِ بالمطر فللتشابه في النزولِ من السماء؛ أرسلتُ المقالةَ إلى المجلة، ونُشِرَتْ في عدد أبريل، لتكون فاتحة النشر في المجلة.

شجّعني ذلك على إرسال بعض القصص إلى المجلة، فوجدتها تُنشر على الفور، مزينةً باللوحات والرسومات. وعندما مرَّت شهور دون أن أرسل مقالةً أو قصة وردني اتصالٌ من رئيس التحرير الدكتور زياد الدريس دون سابق معرفةٍ بيننا، متسائلًا عن سببِ الغياب؛ ولم يكن هناك من سبب سوى الانشغال بكتابات ليس مكان نشرها المناسب مجلة المعرفة. عندئذ طلب مني أن أبعث مقالةً أو قصة لنشرها في المجلة، فكان لذلك أثرٌ بالغ في ارتباطي الوجداني بالمجلة وبشخص زياد الدريس، وفيما بعد وردني

اتصال من مدير التحرير الأستاذ خالد الباتلي؛ يدعوني للمشاركة في ملف أحد الأعداد، وامتد التعاون بيني وبين الصديقين الحبيبين، واتصل الودُّ، ومحضتهما الحبَّ، كما كانا للوفاء وطنًا، وللمودة أهلًا؛ فاتصلتْ حبالُنا، وتعاظمتْ صداقتنا الهاتفية، وصِرْتُ لا أستغرب دعوتهما إياي للمشاركة في ملف عدد قادم، لأتناول زاوية من زواياه من وجهةٍ أدبية، ولم أكن أقطع بالمشاركة حتى أراجع مكتبتي، فيتشكَّل لدي موضوعٌ مناسب، فنتفق على موعدِ إرساله؛ وصرتُ أعرف أن من سياستهما الاحتياط في المواعيد، ربما لكثرة ما يلاقيان من عَنَتٍ في التزام الكتّاب بمواعيدهم، في حين أن لصدور المجلة موعدًا لا يجوز إخلافه. وكانت موضوعاتي تلقى عناية؛ فتخرج في حلةٍ أرتضيها، وتُرضي الذين يتواصلون معي من القراء، ولم أكن أستطيع إزاء هذا الإحسان والكرم والنبل إلا ضرورة الالتزام وتلبية الدعوة، برغم ما أكابده من مشقة في الكتابة تحت ضغط موعد محتوم؛ وذاك أني كما قال شوقي:

أدِينُ إذا اقتادَ الجمالُ أزِمَّتي
وأعْنو إذا اقتادَ الجَميلُ عِناني

وفي عام 2001م، تُوِجَتْ هذه الصداقة الهاتفية

الحميمة بلقائي زياد الدريس وخالد الباتلي في إدارة المجلة، وقد كنتُ متشوفًا لهذا اللقاء، ولا أنسى حين دلفتُ إلى مكتب الأستاذ خالد الباتلي بدون موعد سابق، فلمَّا عرَّفْتُهُ بنفسي أعربَ عن اندهاشه، فقد كان يُخيل إليه مما أكتب ومن مهاتفتي أني فارع الطول، ولأني أبعد ما أكون عن هذه الصورة التي تخيلها؛ قلتُ له مازحًا: «لو علمتُ بأن هذه صورتي لديك ما أفسدتُها بزيارتك، فَلأنْ تسمعَ بالمُعيديِّ خيرٌ من أن تراه، كما قال العربي القديم»؛ وبعد حديث جميلٍ ماتع صحبني إلى مكتب زياد الدريس، ومن يومها ربطتني بهما صلةُ الأدب التي أقمناها مقامِ الوالدِ ـ كما يقول أبو تمّام ـ وبادلتهما أصدق المودةَ، واستمرت اللقاءات الحميمة بيننا، وإن كان العملُ دافعَها الأول.

وصديقٌ ثالث سعدتُ بلقائه خلال زياراتي لإدارة مجلة المعرفة، كلما قصدتُ الرياض لأي سبب، وهو رئيس تحرير المعرفة الآن؛ الأستاذ سلطان المهنا، وقد دارتْ بيننا حواراتٌ لم تنتهِ إلى اتفاق، إذ يرى أن الأدباء ينشغلون بما لا ينفع الناس، وأنهم يركنون إلى القديم، ولا يبتكرون جديدًا، بينما كنتُ ـ وما زلتُ ـ أرى أن الأدب الذي يحقّق الإمتاع، وإبراز جوانب الجمال في الحياة، وما يتركه الأدب الرفيع من أثرٍ سامٍ

في نفس المتلقي، يعدُّ خدمةً إنسانية جليلة، وأن الحاجة إليه تتعاظم في هذا الزمن المادي الاستهلاكي الخانق. وقد أكرمني مع الأستاذ زياد الدريس بزيارة لألمع خلال وجودهما في مدينة أبها لحضور أحد الاجتماعات الخاصة بحملة انتشار مجلة المعرفة، وتسامرنا بحضور بعض أدباء ألمع، في ليلة يصدق عليها وصف ليلٍ تهامة في حديث أم زرع: «ليلُ تهامة لا حرٌّ ولا قرٌّ ولاَ ملالةٌ ولا سآمة » اكتشفنا خلال تلك المسامرة الوجه الشعري الرقيق لزياد الدريس، وأشجانا أستاذنا محمد الزيداني ببعض أشجانه، وحنينه.

وقد كانت السنوات العشر بين عامي 1998م و2008م، فترة متميزة في علاقتي الكتابية بالمجلة، نُشِرَتْ لي خلالها عشراتُ المقالات الأدبية والتربوية، والقصص القصيرة، التي نُشرتْ فيما بعد ضمن مجموعاتي القصصية، وجمعتُ الأدبي والفكري منها في كتابٍ بعنوان: (أشتات) صدر عن نادي أبها الأدبي 2011م. أما المقالات التربوية فقد ضمَّها كتابٌ آخر معدٌ للطبع[1]. وفي عام 2004م نشرتُ حلقاتٍ مما كتبَ الأدباء والمثقفون عن أساتذتهم، وقد صدرت

(1) هو هذا الكتاب الذي بين يديك قارئي الكريم، فقد تأخر طبعه حتى لحقت به هذه المقالة وغيرها.

هذه المقالات مجتمعة في كتاب بعنوان: (عندما كان الكبار تلامذة) عام 2005م.

وخلال هذه السنوات العشر لم يكد يخلو عددٌ من مجلة المعرفة من مشاركة: مقالة أو قصة، أو تعقيب، أو تعليق، ولذلك فقد كان صدور المجلة أول كل شهر موعدًا أنتظره بشوقٍ، فكم ارتقبتُ وصول أعدادها إلى بريدي، وكم ترددتُ إلى المحلِّ الذي تُباع فيه، حتى ألفني البائع وألفتُه، وأصبح يناولني إياها بمجرد وصولي، أو يلوِّح بيده مشيرًا إلى عدم وصولها قبل أن أنزل من سيارتي، فكثيرًا ما آتي قبل الأوان تشوقًا لرؤية مقال أنتظر نشره؛ فكم بشتُ من عقلي، ومن قلبي، ومن مشاعري على صفحاتها، وكم سهرتُ الليالي في كتابة مقالة للمعرفة، أو قراءة موضوعاتها.

وقد كانت بحق جديرةً بأن يُصْرَف لها الوقتُ والجهد، إذ هي مائدةٌ ثقافية تربوية متنوعة، تعرض في كل عددٍ تجربةَ التعليمِ في بلدٍ من البلدان؛ مشرِّقة ومغرِّبة، من خلال بابَ: (التعليم من حولنا)، وتقرِّبُ أعلام الفكر والأدب إلى القراء من خلال التركيز على جوانب في حياتهم كما في زاوية: (أنا والفشل)، وقد حظي كثيرٌ من الأعداد بتقديم أساطين الأدب والفكر والثقافة، كما استُكْتِبَ المبرّزون في كل فن، فحوت

الأدب، والفكر، والمعرفة، والتربية، والخبر، والتقرير، وما كنت أبدأ قراءة المعرفة إلا بقراءة الصفحة (101)، حيث أجد منحوتةً عبقرية يدهشنا بها زياد الدريس في كل عدد، وبغيابِ زياد الدريس وزاويته فقدتُ من بهجة المعرفة الكثير، برغم أنها ما تزال زاخرةً بالفائدة والتنوُّع. وكان يرافقها كتاب المعرفة، بشكلٍ فصلي، وهو كتاب قيِّم، زاد ثراء المجلَّة وقراءها، ولكنه توقف، وليته يعود. وفي عام 2004م صدر برفقة المجلة (كشاف المعرفة)، تضمن فهرس موضوعات مجلة المعرفة من العدد (1 ـ 100)، وهو عملٌ في غاية الأهمية، وليت القائمين على المجلة يقدمون لنا كشافًا، للأعداد المئة التالية.

ولم تنقطع علاقتي بالمجلة في عهدها الجديد بعد ذلك؛ فقد كتبتُ لها مقالة مطوَّلة عن قصة التعليم في رجال ألمع[1]، ونشرت في عدد ديسمبر 2010م، ومقالة عن أستاذي الشاعر محمد الزيداني، لزاوية (لن أنساه) نُشِرَتْ في عدد أكتوبر من هذا العام 2011م. وما تزال مجلة المعرفة وستبقى ـ بإذن الله تعالى ـ منارة يهتدي بها التربويون، ومُتَنَفَّسًا يبثون عبرها أشجانهم،

(1) ضمته الصفحات (11 ـ 27) من هذا الكتاب.

ووسيلةَ تثقيفٍ وصقلٍ للمواهبِ، ونخلةً باسقةً يستظلون بأفيائها، ونافذةً يُطِلُّونَ عبرها على العالم من حولهم. راجيًا أن يُحتفل في يوم من الأيام بالعدد (1000) من مجلة المعرفة، وإن يكن ذلك بعد أن نُمسي شيئًا من ذاكرة المعرفة؛ فليكن لأن المهم أن تستمر المعرفة تصدر وتتجدد للأجيال القادمة؛ ولو بوسائط غير التي نعرفها اليوم، لأن المعرفة والثقافة، والفكر التربوي؛ من الضرورات التي ستبقى احتياجًا دائمًا عبر الأزمنة.

أين تراثنا التعليمي؟!(*)

حفظتْ لنا إصداراتُ إدارةِ التربية والتعليم، وإصدارات بعض مدارسنا جزءًا من تراثنا التعليمي في محافظة رجال ألمع، منذ افتتاح أول مدرسة نظامية في المحافظة عام 1359هـ ـ 1940م، أي منذ سبعين سنة، مع أن هذا الزمن لا يعدو متوسط عمر الإنسان، إلا أنَّه بمقاييس التحول والتطور التعليمي الذي حدث يُعدُّ أمدًا طويلًا، فهذه السنوات السبعون مليئة بالتحولات والتغيرات، مسايرةً لما طرأ على المجتمع بأسره من تحولات، واكبتْ الطفرةَ النفطية، وخططَ التنمية، وثورةَ الاتصالاتِ والمعلومات.

ولكن ما الذي حدث لمدارسنا خلال هذه السنوات السبعين؟! وأين كانت؟! وكيف كانت؟! وأين أصبحت؟! وكيف أصبحت؟! هذه أسئلةٌ نستطيع استنطاق معاصري كل مدرسة حول إجاباتها، ولكنها ستأتي إجاباتهم ناقصةً، متذبذبةً، ترزحُ تحت وطأة الذاكرة، التي حيَّدَتها التقنيةُ ووسائطُ المعلومات.

(*) مجلة **آفاق تعليم ألمع**، العدد الأول، 1430هـ ـ 2010م.

وإلى ماذا سنصل في النهاية، أكاد أقول إننا لن نصل إلى شيءٍ موثَّقٍ وآمنٍ من عوادي الخطأ والنسيان، فكل ما يمكن أن يجده الباحث حول تطور التعليم الحكومي في المحافظة لا يعدو إحصائيات وأرقامًا جامدة، لا تُمثِّل سوى ثلث عمر التعليم في المحافظة، أي عمر إدارة التربية والتعليم التي أُنشئتْ سنة 1405هـ/ 1985م، فأين تاريخ الفترة السابقة لذلك من عام 1359هـ/ 1940م إلى عام 1405هـ/ 1985م؟!

هل أقول: لا أحد يعرف؟! كم هو موجعٌ قول ذلك، ولكن أين الذين يعرفون؟!

ومع ذلك فليس الذي أعنيه بتراثنا التعليمي عدد المدارس والفصول، ولا عدد الطلاب والمعلمين، ولا عدد الحراس والعاملين، إن الذي أعنيه كلَّ ذلك ومعه تاريخ كل مدرسة؛ مشتملًا على أسماء وصور معلميها وطلابها، والعاملين فيها، وكيف كانت تدار العملية التربوية والتعليمية فيها، وصور لمبناها، ومناشطها، وأهم الأحداث والتطورات التي وقعت فيها، والنجاحات التي حقّقتها، عبر السنوات، وفوق ذلك كلِّه آلية استحضار لهذه المعلومات، عند الحاجة. فأين كلُّ هذا؟! الجواب مخيبٌ للآمال بلا شك، ولكن

الخيبة تصبح فوق الاحتمال، عندما نعلم أننا لا نملك إجابات عن هذه الأسئلة لو حصرناها في فترة وجود إدارة تعليمية مستقلة، أي منذ خمسٍ وعشرين سنة، بل لن نجد إجابات شافية موثَّقة لو وجهنا هذه الأسئلة، إلى إدارة التربية والتعليم نفسها، عن بدايات نشأتها، وما صاحب ذلك من جهود مؤسسي الإدارة، الذين أُلقي على أكتافهم حمل التعليم في المحافظة، وقاموا بجهدٍ جبار، في لمِّ شعث مدارس المحافظة، ووضع اللبنات الأولى لإدارة التربية والتعليم بالمحافظة.

أضرب مثلًا بمدرسة الصقر الابتدائية التي درستُ بها المرحلة الابتدائية، لأسأل لماذا حملت هذا الاسم، بالذات؟ وكيف نشأت؟ إن أكثر المهتمّين بالتعليم لا يعلمون أن أول من افتتح هذه المدرسة هو الأستاذ محمد شبلان، وزميله المرحوم محمد إبراهيم الصغير، الذي توفي في حادث بعد افتتاح المدرسة بشهور، وأن عدد طلاب الصف الأول سنة افتتاحها بلغ 54 طالبًا، ومما لا يعلمه المهتمون بشأن التعليم أيضًا أن المواطنين قاموا ببناء هذه المدرسة في مطلع التسعينيات الهجرية، بنوها بالحجر والطين، على طراز مدرسي رائع مكونةً من عشر غرف تفتح على فناءٍ واسع، تجمعها بوابةٌ واحدة، وكان الناس يسمونها

(مدرسة الغراب) على اسم الجبل الذي بنيت على سفحه، ولما بلغ هذا الاسم الإدارة التعليمية في أبها اقترح بعضهم تغييره تشاؤمًا، فقلبوا الغرابَ صقرًا، وسموها (مدرسة الصقر).

وقد كنتُ في الصف الرابع عندما قررت لجنة رسمية أن السقوف آيلة للسقوط، وأنها تشكل خطرًا على الطلاب، فكان الحلُّ العاجلُ نصبَ خيام مؤقتًا لصفوف المدرسة الستة، واستمر هذا الحل العاجل والمؤقت حتى أنهيت دراستي الابتدائية، وبعدها بسنوات أقيمت صنادق من الزنك عوضًا عن الخيام، حتى أنشئ المبنى الأنيق الذي نراه اليوم.

أسوق هذا المثال لأخلص إلى السؤال عن هذه الأحوال التي مرت بهذه المدرسة، من يعرفها؟ وأين صور البناء الأول؟ وأين صور الخيام؟، وأين صور صنادق الزنك؟

لا شيء من ذلك بين أيدينا، وكذلك بقية مدارسنا، وكيف لنا أن نعرف ما صاحب افتتاح كل مدرسة من مواقف، ومن عقبات، ومن هم معلموها الأوائل، ومن وقف وراء افتتاحها، وسهَّل مهمة العاملين فيها.

ومثالٌ آخر أدركه جيلي من الطلاب، حيث كانت توزَّع علينا وجبات غذائية يومية، يؤتى بها في كراتين حسب الأيام، لكل يوم وجبة يختلف لون الكرتون الذي يحتويها، ومكوناتها، ولا أنسى فرحتنا ونحن نقف في طوابير لتسلمها، والاستمتاع بمحتواها، ولم أعثر في مدرسةٍ واحدةٍ من مدارسنا على صورةٍ للطلاب وهم يتسلمون الوجبات الغذائية أو يتناولونها، فمن يتذكر في المستقبل مثل هذه الصورة؟!

إن تأمل حال سبعين سنة من ذاكرة التعليم المفقودة تفسّر لنا ضياع تاريخنا الاجتماعي، عبر القرون، بفعل الإهمال وعدم الاكتراث للآتين والمتسائلين؛ كيف كان يعيش الآباء؟ وما هي أعرافهم؟ في حين انشغل كل جيل باليومي، ولقمة العيش، وبما هو أقل أهمية من الرصد والتدوين!

إن هناك من لا يرى لحفظ تراثنا التعليمي أهمية فجاوز الإهمال وعدم الاكتراث، إلى إتلاف كل ما له صلةٌ بالماضي، من سجلات، وملفات، وصور ومخاطبات، بحجة أنها تشغل مساحاتٍ، وأدراجًا، دون أن يكون لها حاجة. وماذا نقول لمن تسول له نفسه اقتراف ذلك إلا ما قاله القاضي أبو يعلى المعري عندما مرَّ ببلدة (شياث) ظاهرة معرة النعمان والناس

ينقضون بنيانها ليعمروا به موضعًا آخر، فقال:

أتتلفها؟! شُلَّتْ يمينُكَ. خَلِّها
لِمُعْتَبرٍ أو زائرٍ أو مُسائلِ
منازلُ قومٍ حدَّثَتْنا حديثهم
ولَمْ أرَ أحلى من حديثِ المنازلِ

إن على أولئك أن يتفهَّموا أن هذا التراث الذي لا يأبهون له، في غاية الأهمية، وأن الأيام تزيده قيمةً إلى قيمته، فهو يُعطي صورة لحقبة زمنية، لن تعود، ولن تمسكها الذاكرة بدون صورة، أو وثيقة تشرحها للأجيال القادمة.

إن وهلةً من التفكير تهدينا إلى الحل لتدارك ما يمكن تداركه من تراثنا التعليمي، ليس في محافظة رجال ألمع وحدها، بل في كلِّ محافظات المملكة ومناطقها، ويتلخَّصُ الحلُّ في إنشاء قسم في إدارات التربية والتعليم يُعْنى بالتراث التعليمي، يكون دوره النبش عن كل ما له قيمة في مسيرة التربية والتعليم، وأرشفته، وفق آلية جيدة وعملية لعرضه واستحضاره، وإقامة معرض دائم بالصور والوثائق لخطوات التعليم في كل إدارة تعليمية.

محمد الزيداني...
المعلم النبيل(*)

بعد أن أنهيتُ دراسةَ الصف الأول المتوسط في مدينة أبها التي لم أتصالح معها، قُدِّرتْ لي العودةُ إلى رجال ألمع، لدراسة الصف الثاني المتوسط عام 1984م، في مدرسة (مندر العوص)، التي كانت تضم أبرز الوجوه التعليمية في المحافظة، بوصفها من أهم المدارس المتوسطة في المحافظة؛ ليس لتقدُّمها بين مدارس المحافظة زمنيًا فحسب، بل لأنها فوق ذلك تمتاز بموقعها المتوسط، والقريب من مركز المحافظة، ولذلك فقد كان معلمو هذه المدرسة أنفسُهم نواةَ العمل التربوي والإداري في إدارة التربية والتعليم بالمحافظة، التي افتُتِحَتْ فيما بعد، فقد كان من بين

(*) مجلة **المعرفة**، عدد (199)، أكتوبر 2011م، ص.ص (148 ـ 151). وقد ألحقت هذه المقالة بالطبعة الثانية من كتابي (عندما كان الكبار تلامذة)، ص.ص (279 ـ 287) غير أنني رأيت أن مكانها الأليق هنا.

معلميها إضافةً إلى مديرها الأستاذ الحسين بن سليمان الحفظي (مدير التربية والتعليم فيما بعد) ووكيلها الأستاذ: الحسين بن محمد الزمزمي، ومعلم التربية البدنية الأستاذ: يحيى جابر الزيداني ـ الذي كان يعلِّمنا مع رياضة الأبدان، سمو الأرواح ـ مجموعةٌ من الأساتذة المعاقدين الذين كانوا مِهْنِيين في تدريسهم بشكلٍ لافت، ومن أبرزهم الأستاذ: عاطف الشناوي أستاذ اللغة العربية، الذي كان يهتم بتدريبنا على العمل المسرحي، وتذوُّق النصوص الأدبية، والأستاذ سيد سرور الذي كان يحاول أن يجعلنا نعيش التاريخ الذي ندرسُهُ بحماسة نادرة، والأستاذ السوداني: بكري بلال مدرس التربية الفنية، الذي لم يكن مجرد معلم للفنية، بل كان فوق ذلك اسمًا بارزًا في المشهد الفنّي السوداني، كشف لنا ذلك تَصَفُّحُنا لعدد من الصحف التي نجدها في حجرة الرسم بالمدرسة، فنقرأ بعض اللقاءات معه، وتغطيات للمعارض التي أُقيمتْ له في داخل السودان وخارجه، ونَطَّلِعُ على صورٍ لبعض المناسبات التي كُرِّم فيها. كل هذه السمات في شخصيات معلميَّ في مدرستي الجديدة، كانت جديدة أيضًا بالنسبة إليَّ؛ ففي المدينة حيثُ درستُ السنة الأولى المتوسطة، كان أكثر معلمينا قد بَرِمَ بالتدريس،

أو انغمسَ في تجارة العقارات أو السيارات، ومن لم يكن من الفئتين فإنه في منطقةٍ وسطى بينهما، أو أنَّه في منطقةٍ وسطى بين التلاميذ والمعلمين، إذ كانتْ مدرستنا حقلًا لتدريب طلاب الجامعة على العمل التربوي، وقد أصبحتُ أحد المتدربين في المدرسة نفسها بعد دراستي فيها بعشر سنوات، وفي القاعة التي درستُ فيها تحديدًا.

في الحصة الثالثة من يومنا الدراسي الأول دخل علينا الصفَّ معلمٌ طويل القامة، حسنُ الهيئة، يمتلىء شبابًا؛ سلَّم ثم استدار إلى السبّورة، وقد صمتَ الجميع حتى لكأنما هو بمفرده في الصف، فلا يُسمعُ سوى صوتِ الطبشور الذي كسره على حافة السبورة، ثم أمسكه بين أصابعه بالعرض، وخَطَّ به أسفل السبورة خطين متوازيين، ثمَّ رفعه إلى مستوى عينيه ليتأكد أن قد أصبح مشطوفًا بشكل مناسب، ثم كتب بخط الرقعة الذي لم أرَ قبله أجمل منه: (المادة/ تفسير) وتحتها كتب: (الموضوع/ تفسير آيات من سورة الملك)، ثم كتب الآيات بخطٍ تميل فيه الكلمات قليلًا، بينما تستقيم السطور، والأعجب من اتساق خطه، واستقامة حروفه، نهايات السطور التي انتظمت بعضها فوق بعض، فلا يزيد سطرٌ عن سطر أو ينقص موضع حرفٍ

واحد. انتهى من كتابة الآيات ولم ينتهِ عجبي وإعجابي، رحَّب بالطلاب في يومهم الدراسي الأول في عامهم الجديد، ولم ينس الترحيب بالطالب الجديد، الذي يتمنى له التوفيق والارتياح في مدرسته الجديدة، بين زملائه الجدد، ثم طلب من أحد الطلاب قراءة الآيات المكتوبة على السبورة، ففعل، ثم أشار إليَّ بأن أعيد القراءة؛ ربما أرادَ أن يُدْخِلَني في جو المكان الجديد، وربما ليروز هذا الطالب الجديد، الذي ستكشف قراءته المرتبكة عن الفرق بينه وبين التلميذ الذي سبقه بالقراءة، ومع ذلك فكثيرًا ما كان يُكَلِّفُني قراءة الآيات في الحصص التالية، ما اضطرني إلى تحضير الآيات باستمرار قبل دراستها.

بعد الحمد والديباجة، والتعريف بالسّورة؛ بدأ بإعراب السطر الأول من الآيات، ثم عاد فَفَسَّرَ الآيات تفسيرًا وافيًا في لغة فصيحة، وبيانٍ مدهش، ونبرةٍ حلوة، والعجيب أن الحصة كانت كافية لكتابة الآيات بهدوء، وقراءتها مرتين، وإعراب جزءٍ منها، وتفسيرها تفسيرًا وافيًا، ومناقشة الطلاب حولها، ثم قراءة شرح الآيات من الكتاب، وبقي من الحصة دقائقُ جَلَسَها صامتًا متأملًا، بينما تدور همساتٌ في جانِبَي الصف لا يلتفت إليها، فلما سمع صافرة نهاية الحصة (ولم يكن

هناك كهرباء ولا جرس) نهض مغادرًا، وفي طريقه إلى الباب قال: السلام عليكم، وما زال السؤال يدور برأسي عمَّن يكون هذا المعلم/المثال؟!

وبرغم شغفي بمعرفته إلا أنني لم أتواصل بعدُ مع طلاب الصف بشكلٍ يُتيحُ لي سؤال أحدهم عنه، فآثرت الصمت، ولكن الأيام التالية حملتْ لي الجواب، بأنَّه الأستاذ: محمد بن أحمد الزيداني، وأنَّه مدرسٌ للغة العربية، ولكنه تولى تدريس التفسير إضافةً إلى تخصصه تخفيفًا عن مدرس التربية الإسلامية، وتلك شيمةٌ تعكس جانبًا من خصاله وشمائله الكريمة.

عرفتُ فيما بعد أنه ليس معلمًا فحسب بل هو فوق ذلك أديبٌ وشاعرٌ وخطيبٌ مِصْقَع، ومتكلمٌ نادرُ المثال في بيانه، وانسياب أفكاره، وفصاحة لسانه؛ وعلى كثرة المعلمين الذين علموني في مختلف مراحل الدراسة حتى الجامعة، وكثرة المعلمين الفضلاء الذين جمعتني بهم حياتي العملية، التي بلغت العشرين سنة[1]؛ لم أجد من يقترب من أستاذنا محمد الزيداني في شمائله أو بعضها، فضلًا عن أن يكون مثله.

(1) يوم كتابة المقالة عام 2011م.

مضى هذا العام يومًا بعد يوم، ودرسًا بعد درس، وصورة (الأستاذ: محمد الزيداني) تزداد تألقًا وجلالًا، حتى صرتُ ـ وأظنُّ زملائي كذلك ـ أرقبُ درسه بشوق، وينتهي درسه وقد مُلئتُ له مهابةً وإجلالًا، واستقيتُ شيئًا من رصانته، وشيئًا من فصاحته، مع ما يهب لنا من معرفته، وكثيرًا ما كنت أعيد النظر في كلمات التشجيع والثناء التي يُعلِّق بها على واجباتي بخطه الجميل، وإني على سروري بها كنتُ أعلم أن ما كتبتُ يتقاصرُ عنها كثيرًا، حتى جاء آخرُ يوم قبل اختبارات نهاية العام، حيث انتهى من آخر درسٍ في التفسير ـ واللافت أن آخر درسٍ لم يكن يختلف عن أول درس، فقد كانت أفعاله وأقواله محسوبة، فلا يترك شيئًا للصدفة، أو للظروف ـ وكعادته بعد أن انتهى من الكتابة والشرح والقراءة، طلب منا دفاتر الواجب، فنزل عليَّ طلبُهُ هذا كالصاعقة، فلستُ أدري كيف غفلتُ لأول مرة منذ بداية العام عن الواجب، ولم يكن يخطر ببالي أنَّه كلَّفنا واجبًا منزليًا، قَلَّبْتُ دفتري، فوجدتُ آخر الواجبات مصححًا ومذيلًا بالثناء والدعاء والتوقيع، وكانت مهابتُهُ وحيائي يمنعانني من الإفصاح له عن نسياني الواجب، فوضعتُ دفتري بين دفاتر زملائي، وتشاغلت بتقليب صفحات كتابي، منتظرًا أن يسألني عن الواجب، أو أن يعاتبني

لأني سلمت الدفتر فارغًا منه، ولكن المفاجأة أنَّ دفتري أُعيد إليَّ دون أن يكلمني، فتناولتُ الدفتر ووضعته في الدرج دون النظر إليه، متشاغلًا بالقراءة، فلما خرج من الصف، بادرتُ إلى فتح دفتري لأجده قد كتب في منتصف الصفحة البيضاء: (كلَّ عام وأنت بخير.. مع تمنياتي لك بالتوفيق) كتبَ هاتين العبارتين بخط الرقعة الجميل؛ قرأتها غارقًا في بحرٍ من الخجل، لنسياني الواجب، ولموقفه النبيل تجاه تلميذٍ قدَّم دفتره فارغًا من الواجب.

في السنة التالية وتحديدًا في منتصف عام 1985م، افتُتِحَتْ إدارة التربية والتعليم بمحافظة رجال ألمع، وترك أكثرُ المعلمين المدرسة ليكونوا النواة الأولى للعمل الإداري والتربوي في الإدارة، غير أن حظنا كان سعيدًا حين لم يلحق أستاذنا محمد الزيداني بأولئك، بل بقي ليقود المدرسة، وإن فقدنا إطلالته معلمًا، وفقدنا منظر السبورة التي تتحول في كل حصةٍ من حصصهِ إلى لوحة من روائع خط الرقعة، فقد كسبناه قائدًا لمدرستنا، تلك السنة، ولما ظهر من قدرته الإدارية والقيادية الفائقة، كُلِّفَ إدارة ثانوية الصديق، التي التحقتُ مع زملائي بها، لندرس سنوات المرحلة الثانوية؛ ما بين عامي 1986م و1989م،

وهي السنوات نفسها التي قضاها في إدارتها. وإني لأجاوزُ مضطرًا ما يحضرُني من مواقفه ونوادره في تلك السنوات الثلاث؛ لضيق مجالِ القول هنا، ولعلَّ مقامًا آخر يُتاحُ لي فيه ذكرُ شيءٍ منها، لتكون دروسًا أخرى لمعلمي اليوم، ومعلمي الغد.

تنقَّل بعد ذلك في مسؤوليات تربوية وإدارية متعدِّدة بإدارة التربية والتعليم، بينما تركتُ المحافظة للدراسة الجامعية، ولم تنقطع صلتي به خلال هذه الفترة، ولكن لقاءاتنا كانت محدودة، فلا تتجاوز واجب زيارة التلميذ لأستاذه، أو الاتصال لتحيته، وتجديد العهد به، أو حضور خطب الجمعة في مسجده، حيثُ كنت مع أداء فريضة الجمعة أنعم بالمتعة الأدبية، باستماع مواعظه التي يقدِّمها، في بيانٍ أخَّاذ، وفصاحةٍ نادرة، وإيجاز وافٍ.

وبعد مضي عشر سنوات منذ افترقنا ذات وداع في ثانوية الصديق عام 1989م، جمعني العمل مجددًا بأستاذي في إدارة التربية والتعليم عام 2000م، فكنا في مكتبين متجاورين، حيثُ كان يرئس قسم الثقافة والمكتبات، وكنتُ أرئس قسم الإعلام التربوي، ويا لسعادتي بمجاورة أستاذي، حيث أذهبت الألفةُ والقربُ بعضَ قيود التلميذ أمام أستاذه؛ وإن لم تزل

مهابته وجلاله وكاريزماه الخاصة كهالة تحيطه، لا يستطيع النفاذ منها من لا يزال يرى نفسه تلميذًا صغيرًا بين يدي أستاذٍ كبير. وخلال هذه السنوات التي قضيناها متجاورين كنت أتردد إلى مكتبه لنتحدث، ويكرمني بقضاء بعض الأوقات في مكتبي، وفي الحالين أنعم بوصاله، وأفيد غاية الإفادة من ثاقب نظره إلى الأشياء، بل إن الساعات التي كنَّا نلتقيها كانت بالنسبة إلي وإلى من يجالسه دروسًا عملية في حسن القصد، وتدبر العلم، وتأمل الحياة، ولذة الطاعة، والتفكر في ما حدث وما يمكن أن يحدث، وفي عام 2004م، فاجأنا باتخاذه قرار الاستقالة من العمل التربوي، ولأنه ليس بالذي يتردد في اتخاذ القرار؛ فهو لا يُقدِمُ عليه إلا بعد أن يكون قد تفكر في نتائجه، وقدَّر دوافعه وتوابعَه، فلم يكن أمامنا سوى أن نهنئه على الخلاص من ربقة الوظيفة، وفي الوقت نفسه نأسف على فقدانه في المكان الذي كان يملؤه عطاءً، وإفادةً وإجادة، بوصفهِ أنموذجًا متفردًا في سلوكه الخاص والعام، فقد كان بحق النموذج التربوي والإنساني الفريد المُجْمَع على أنه المثال الذي جمع بين رهافة حس الشاعر، ورقته، وبين مثالية الرجل المتدين الخلوق، والمثقف الأصيل، والتربوي

المتمرس، واللغوي المتضلع، والخطيب المِصْقَع، والخطاط الباهر، والشخصية الآسرة، ولهذه الصفات الحميدة، وغيرها ـ مما يتفاوت الناس في إدراكه ـ فقد كان يملأ قلوب طلابه مهابةً، لا تلبث أن تتحول إلى احترامٍ وحب؛ فيسعون إلى الاقتداء به، ولو في جانب من جوانب مثاليته.

وبإلحاح من بعض طلابه ومحبيه، جمع بعض رؤاه التربوية، وتجاربه الميدانية، وأصدرها في كتابين هما: (من.. أوراق معلم) و(هُتاف النجاح)، وهما آخر ما صدر من كتبه ودواوينه، إذ سبقهما ثلاثة دواوين شعرية: (عماد الراية، من أشجان الغربة، صدى الذات)، وكتابٌ نثريٌّ بعنوان: (رسالة القبر)، وثلاث مجموعات من خطب: (روضة الإيمان).

ومنذُ تركَ العملَ التربوي عادَ بكُلِّيَتِهِ إلى مكتبته ومسجده، وأسرته، مع اضطلاعه بمسؤولياتٍ اجتماعية فرضها حبُّ الناس إياه، وثقتهم به، فهي تسعى إليه وهو راغب عنها، ولكنَّهُ يرضخُ عندما يخشى تفويتًا لمنفعة يرجوها للناس، إيمانًا منه بأن خير الناسِ أنفعهم للناس، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ماذا يريد المجتمع من نفسه؟(*)

ماذا يريد التربويون من المجتمع؟ وماذا يريد المجتمع من التربويين؟ سؤالان يترددان كثيرًا في الأوساط التربوية والإعلامية هذه الأيام، وقد أُغفل سؤالٌ ثالث لا يقل عنهما أهمية؛ حول (ماذا يريد المتعلمون من المجتمع تربويين وغير تربويين؟) وأعني بالمتعلمين الطلاب والطالبات بفئاتهم العمرية المختلفة، ومراحلهم الدراسية المتعدّدة، وإذا عدنا إلى السؤالين مثار الجدل، فإن الفصل بين المجتمع من جهة وبين التربويين من جهة أخرى يولِّد إشكالية الفصل بين الشيء وبعضه؛ فهل المجتمع إلا مجموعة من الأفراد؛ فيهم التربوي وغير التربوي، ويمكننا تجاوز هذه الإشكالية باعتبار المراد بالتربويين الذين يضطلعون بعمل تربوي بشكل مباشر أو غير مباشر، واعتبار المراد بالمجتمع كل المجتمع تربويين وغير تربويين،

(*) مجلة **المعرفة**، العدد (93)، ذو الحجة 1423هـ ـ فبراير 2003م.

فيكون السؤال: ماذا يريد التربويون وغير التربويين من التربويين؟ وماذا يريد التربويون من أنفسهم ومن غير التربويين؟ ووفق هذا التفسير للسؤال المطروح، سنجد المراد يتعدد ويتنوع، ولكننا سنجد أيضًا أن كل أطياف المجتمع تكاد تجتمع حول الأهداف والغايات، ولكنها ستختلف اختلافًا بيِّنًا حول الوسائل والأساليب التي بها يمكن تحقيق هذه الغايات، وهذا يقودنا إلى سؤال آخر حول؛ من يملك القدرةَ والحقَّ ـ معًا ـ في تحديد الأساليب والوسائل التي تؤدّي بنا إلى تلك الغايات (المتفق عليها) التي يسهُلُ على أي مهتم بالتربية تعداد كثيرٍ منها دون عناء؛ من مثل: بناء الأجيال المعتزة بدينها، المعتدة بانتمائها، المعتمدة على ذواتها، المؤهلة للعيش بفاعلية، الماهرة في التعامل مع التقنية المتطورة، المستعدة للمشاركة في حياة مجتمعها والمجتمع الإنساني، الأجيالِ التي توازن بين حقوقها وواجباتها، ذات التطلع إلى مستقبل أفضل، وأكثر رخاء، منطلقة من المعالم المشرقة للماضي، القادرة على التفاعل الحر المتبادل مع الثقافات الأخرى.

أكاد أجزم ألا أحد يعترض على شيء من هذه التطلعات، غير أن ميدان الرؤى المختلفة، وزوايا النظر المتباينة، ستكون في طريقة الوصول إلى هذه

الأهداف، ومن هنا تأتي ضرورة التناغم بين أطياف المجتمع، سعيًا نحو تحقيق هذه الأهداف الكبيرة، وأعود فأسأل: من يملك حق تحديد الوسائل والأساليب التي ستسرع بنا نحو تحقيق هذه الأهداف؟ ومع أن ذلك حق الجميع، بل أقول واجب الجميع، إلا أن مبدأ التخصص يحتّم علينا أن ننتظر ذلك من ذوي الخبرة والتجربة في الميدان التربوي من أكاديميين، ومن ممارسي العمل التربوي وأخص أولئك الذين تعني لهم التربية همًا يوميًا، لا راتبًا شهريا.

لأن الهمَّ التربوي همٌّ أممي لا يصح أن يُجزأ، ولا يصح أن تعتقد فئات من مئات المجتمع أنها بمنأى عن المسؤولية في حال تردي الجيل تربويًا، أو أنها غير مساهمة في حال سموه. ومع أنه يمكن اعتبار العملية التربوية فردية في مبدئها، إلا أنها جماعية الأهداف والنتائج، فعناية الأسرة بالطفل في سني عمره الأولى تجعل من الأسرة مدرسة تعتني بابنها أو أبنائها، وتوجيه المجتمع يلازمه في غدوه ورواحه، وفي كل جوانب حياته، بل يمتد إليه حتى وهو في كنف أسرته، ليكون هذا المجتمعُ مدرسة بلا أسوار، كل أفراده معلمون، بينما تصبح المدرسة بتلاميذها ومعلميها أشبه بالأسرة، ولهذا فإن البيت

والمدرسة والمجتمع والتربويين وجوه متعدّدة لشيء واحد، غير أن لكل منها دورًا يتحدد من خلال المجتمع أبًا وأمًا، وإمام مسجد، وكاتبًا أو صحفيًا، ورجل أمن، ويتحدد من خلال التربويين معلمًا، ومرشدًا، ومدير مدرسة، ومشرفًا ومسؤولًا ـ دقت أو جلَّت مسؤوليته التربوية ـ وبهذا التمايز في الأدوار، والاتحاد في الأهداف يتحقّق التكامل المنشود. ووفق هذا التكامل يمكن أن نشير إلى ما يمكن أن ترجوه كل فئة من الأخرى ـ على أن هذه الفئوية من باب التكامل لا التضاد ـ وفق معايير موضوعية واقعية، لا تبلغ حدَّ الإسراف في التمني والمثالية، التي تكاد تلامس أمانيَّ المتنبي حين يقول:

أريدُ من زمني ذا أن يُبَلِّغَني
ما ليس يبلُغُهُ من نفسه الزمنُ

فالمتعلمون يريدون من محيطهم الاجتماعي والتربوي أن يحفظ لهم قيمتهم واستقلاليتهم باعتبارهم رجال الغد، وأن يرفع معنوياتهم، ويعلي شأنهم، ويأخذ بأيديهم لبلوغ ما عجز عنه سابقوهم، ويؤمِّن لهم مستقبلًا يوازي مستقبل أقرانهم الذين يتساوون معهم في مستوى التأهيل والقدرات، من خلال فرص متكافئة، دون تمييز لبعضهم على حساب بعض. وأن

تقدم لهم المعرفة بأساليب مشوقة، تحترم عقولهم وأعمارهم، وأن توفر لهم وسائل التعلُّم والترفيه في جو نقي يعلو بنفوسهم وأخلاقهم وأجسادهم على السواء.

أما المجتمع فإنه يتطلعُ إلى تحقيق ما يرجوه من زوايا مختلفة، أصدقها وإن لم يكن أدقها ما يتطلع إليه الأبوان، فهما ـ وإن لم يكونا تربويين بالمعايير المشار إليها ـ يمارسان العمل التربوي تجاه طفلهما منذ لحظة تسجيله في مدرسة الحياة، فيتشكل على يديهما لغويًا وقيميًا بشكل مبدئي، ثم يودعانه المدرسة عند بلوغه الست السنوات لزيادة مهاراته اللغوية والذهنية، ومهارات التكيف الاجتماعي والنفسي، وليحصل على الجرعات المعرفية. ويرجو الأبوان أن يكون مستقبل أبنائهما الهمَّ الأول للتربويين، وأن يفرغوا من كل شاغل يبدّد جهدهم أو يصرفهم عن رسالتهم التي ينبغي أن تملأ كل جوانب شخصياتهم مهنة ورسالة، ليخرجوا جيلًا مؤهلًا للعيش الكريم، يعتمد على ذاته، يحيا لدينه ووطنه وأمته، ويتحمّل المسؤولية، ويحسن التعامل مع الآخرين لتحقيق الأهداف العامة لمجتمعه، مواكبًا لمتطلبات العصر معرفيًا ومعلوماتيًا، يتطلع إلى مستقبل أفضل من حاضره، ويرتبط بجذور ماضيه

وقيمه، ويحيا حاضره بفاعلية وجدية وموضوعية. وأن يساهم في توجيه العملية التربوية من خلال قنوات محدّدة تضمن تحقيق الهدف دون تجاوز.

وعلى التربوي ألا يقف بفكره وفعله عند حدود طموحات الأبوين، إذ عليه أن يبدع في ميدانه وأن يبتكر وأن يجدّد بما يتفق والأهداف العامة للمجتمع، وأن يكون ذا أفق واسع ونَفَسٍ طويل، ونَفْسٍ تواقة.

أما التربويون فطالما شكوا تجاهل المجتمع لهمومهم وجهودهم حتى قال قائلهم:

تجاهلٌ يا أخا العلياء ذوَّبنا
أسى وألهبنا حزنًا وأبكانا[1]

فهم يفتقدون التقدير الذي يستحقه رواد المعرفة وبناة النفوس والعقول، ويرون أنفسهم مغموطي الحقوق، لم يمنحوا التقدير والثقة كما يليق بمن يؤدّي رسالة كرسالتهم. وفوق هذا فالمعلم خصوصًا يرى نفسه عرضة للنقل والإقصاء لسبب أو بدونه، ولهذا فهو يريد نظامًا تعليميًا واضحًا؛ يعرف من

(1) البيت لأستاذنا الشاعر محمد الزيداني.

خلاله كل أطراف العملية التعليمية ما لهم وما عليهم، لينعم المعلِّم بالأمن الوظيفي، ويريد التربويون من الآباء خصوصًا أن يساهموا بشكل أكبر في متابعة أبنائهم في مراحل تعليمهم، متابعة معرفية تربوية لا معرفية فقط، وأن يكرسوا في أذهان أبنائهم الهدف المعرفي لا الوظيفي فقط، وأن يزرع الآباء حبَّ المعلِّم واحترامه ومهابته في نفوس الأبناء، ويأملون أن تكون وسائل الإعلام رافدًا تعليميًا يثري الجانب المعرفي والتربوي للناشئة، متمشيًا مع احتياجات المجتمع، منسجمًا مع المنظومة الاجتماعية التي يُعتبر التعليم أحد عناصرها الهامة، ليتشكل دور تكاملي بين الإعلام والتربية والتعليم؛ من خلال أهداف واضحة واستراتيجيات مدروسة، بحيث يستشعر الإعلاميون دورهم التربوي، ويتفهم التربويون أهمية الإعلام. ولا أراني مبالغًا في التشاؤم عندما أقول: إن هذه الآمال قد تبدّدت في ضوء وجود الفضاء المفتوح، وثورة الاتصالات، التي جعلت الرقابة والتنقية، وتوجيه الإعلام تربويًا أمرًا بالغ الصعوبة، إلا أن هذا يتطلب من الإعلاميين تقديم الوجبة الإعلامية التربوية بشكل جذاب؛ قادر على ليِّ أعناق المشاهدين إلى البرامج التربوية التي تفيد وتمتع.

ترى بعد هذا الحوار الفئوي الهادف أيتصالح المجتمع مع نفسه؟ ليسير بأكمله في ركاب التربية، تربية الذات وتربية الجيل. هذا ما تسعى إليه قلوب تتفطر لرؤية شباب في أعمار الزهور يندِّونَ عن أسوار القيم الأسرية والاجتماعية الفاضلة.

عواطف المعلمين النبيلة القاتلة(*)

المعلم في مدرسته كالقاضي في محكمته، يُفترض فيه العدل بكل أشكاله وفي كل جوانب تعامله مع طلابه، ومن الأبجديات التربوية التي يعلمها كل المعلمين ـ وإن غابت في ميدان التطبيق لدى بعضهم ـ العدل بين الطلاب في النظرات والكلمات وتوجيه الأسئلة، أثناء تقديم الدرس، ومع أننا (نحن المعلمين) تميل قلوبنا إلى الطالب الجاد النشيط المتفوِّق، ونحبُّ فيه تفوقه واجتهاده، كما نكره في الكسول كسله، وفي المهمل إهماله وفي غير المنضبط عدم اكتراثه، إلا أن ذلك الشعور يجب أن يُحاصر ليبقى شعورًا محكومًا بإطارٍ من العدل.

ولكن المشكلة الأخرى تبرز في فهمنا للعدل تجاه طلابنا، فأكثرنا (معشر المعلمين) يعتقد أن العدل كله أن يتجرد من عواطفه أثناء تصحيح أوراق الإجابات، ويعتقد أنه بذلك قد حقّق أعلى درجات العدل. ولكنه لا يتجرد من عواطفه عندما ينظر بعين

(*) مجلة **المعرفة**، العدد (83)، صفر 1423هـ ـ مايو 2002م.

الرضا إلى طالب نشيط مهما فعل، وبعين أخرى إلى أفعال الطالب الذي قصرت به قدراته الدراسية أو العقلية عن مجاراة المتفوقين، وقد يحاول دفع الطالب الأقل حظًا عن طريق المقارنة القاتلة، بتلك العبارة الخفيفة على ألسنتنا (نحن المعلمين) الباهظة في نفوس الطلاب؛ (أين أنت من فلان؟!)، وقد يتجاوز الأمر ذلك إلى أن يصبح صف العشرين طالبًا مختزلًا في طالبين أو ثلاثة، لا قيمة للصف بدونهم، لأنهم هم الذين يتفاعلون مع الدرس ويجيبون ويحاورون، وقد يتجاوز الأمر ذلك إلى أن يعلو بعض المعلِّمين بهذه النخبة من الطلاب إلى منزلة فوق زملائهم الطلاب ودون المعلمين، وقد يتجاوز الأمر ذلك إلى أن يتبنى بعضُ المعلمين بعضَ طلابِهم لاتفاق ميولهم في فرعٍ من فروع النشاط، وقد ترفع الكلفة كلية بين بعض الطلاب وبعض معلميهم، وهذا ـ في رأيي ـ لا يتفق ومبادئ التربية الصحيحة.

لما كنت طالبًا في المرحلة الثانوية، كان بعض معلمينا، عندما تتقرّر المشاركة في حفلة تقدمها المدرسة؛ يدخل الصف فيشير إلى مجموعة من الطلاب بالأسماء ويدعوهم إلى المشاركة متجاهلًا ثلاثة أرباع الصف، فيخرج أولئك ـ وربما كنت منهم ـ في مشية طاووسية، بينما يقبع الباقون أشبه ما يكونون

بمقاعدهم وقد جللهم غبار الإحباط الذي حثاه المعلم في نفوسهم.

ورأيت من يدعو طالبًا بعينه للمشاركة في مسابقة الإلقاء، وآخر في مسابقة الخطابة، وآخر في مسابقة القصة أو المقالة. وكأن بقية الطلاب خُلقوا بلا ألسنة، أو كأنهم لم يأتوا إلى هنا ليتعلموا القراءة والكتابة، ويشاركوا في النشاطات المدرسية.

إنني بهذا لا أنكر أن المعلم هو أعلم الناس بقدرات تلاميذه، أو يُفترض فيه ذلك، ولكن هذه الانتقائية لها ضحاياها، وربما يكون منهم الطالب المُنتقى، ولتفادي النتائج السيئة لهذه الانتقائية التي قد تغلب عليها عواطفنا؛ علينا أن نجعل الطالب يكتشف قدراته بنفسه، علينا أن نمارس الآلية الصحيحة؛ بأن نعلن المسابقة بكل فروعها ثم تُسجل أسماء الراغبين في المشاركة ونقدم لهم القدر نفسه من التوجيه، ثم نجعل لجنة لفحص المشاركات واختيار الأجود منها ليشارك صاحبها في المسابقة، إننا ـ معشر المعلمين ـ ندرك أن هذه الآلية من البدهيات ولكننا ربما ضاق بنا الوقت، أو استبقنا النتائج واختصرنا الطريق ظنًا منا أننا نعرف النتائج مسبقًا، ولكن ذلك كله لا يُعد في ميزان العدل شيئًا، ولو ظهرت النتائج التي افترضناها

فإننا نحقّق باستخدام الآلية الصحيحة مكاسبَ عدة، فقد كسبنا مشاركة عددٍ من الطلاب، وكسبنا صقل موهبة الموهوب، وكسبنا شعور الطلاب الأقل حظًا بتجردنا ووقوفهم في ميدان المنافسة مع زملائهم المتفوقين جنبًا إلى جنب.

كم هي المرات التي يجتمع المدير بمعلمي مدرسته ليقترحوا أسماء الطلاب الصالحين للمشاركة في مسابقة أو احتفال، أو ربما طلب ذلك من أحد المعلمين فقط، وربما اقترح الأسماء بنفسه دون مشورة من أحد. وكل الذي يشغل باله أن يفوز الطالب الذي يمثل مدرسته ولو كان ذلك الفوز مشيدًا على أنقاض نفوس العشرات من طلاب المدرسة نفسها، ليعلن اسمه وفوزه بكل وسائل الإعلان الممكنة، ويزهو كلٌّ منا بنصيبه من هذا النجاح، الذي نغتال به العشرات من طلابنا الذين يعتقدون ـ ولو خطأً ـ أنهم أحق بحمل شرف هذا الفوز. وربما كان من ضحايانا الطلاب الذين يحظون بمزيدٍ من عنايتنا، فنسقي بذرة الغرور في نفوسهم، ونزين لهم أن يتكبّروا على زملائهم، فتمتلئ نفوس زملائهم بالحقد عليهم.

ومما يفاقم المشكلة أننا (معشر المعلمين) نظن العدل يتمثل في عدم تمييزنا بين طلابنا أثناء تصحيح

إجاباتهم، ونظن الأمانة ألا يطَّلِع طلابنا على أسئلة الامتحانات، قبل أوانها، وهذا عدلٌ وتلك أمانة مشكور من حققهما ولكن أين العدل والأمانة في عواطفنا تجاه طلابنا؟ وفي توزيع الفرص والأسئلة والابتسامة، وفي نبرة الصوت في الخطاب؟ إن هذا القدر العالي من العدل والأمانة لا يتعارض ـ في رأيي ـ مع تشجيع المحسن وتأديب المسيء ولكن بقدر الإحسان أو الإساءة وفي حينهما وبعلم الجميع وأولهم المسيء أو المحسن، لترتبط النتائج بالأسباب في أذهان الطلاب، وعلينا ألا ننسى أننا نتقاضى أجرًا دنيويًا، ونرجو أجرًا أخرويًا، على عملنا في التربية والتعليم، لنقدم التربية والمعرفة لجميع الطلاب دون استثناء، دون حيف، أو اتباع هوى. فأي أجرٍ يأمله الذي يعلو ببعض طلابه على رقاب آخرين.

لقد شكوت من هذا السلوك طالبًا، وشكوت منه معلمًا وأنا أرى طلابًا لا يستطيعون التعايش مع زملائهم على أنهم متكافئون، ولا يستطيعون أن يكونوا غير ذلك. وما هم إلا ضحايا عواطف معلميهم النبيلة القاتلة.

أيها المعلمون..
تشبهوا إن لم تكونوا..(*)

لم يكن المعلمون في زمانٍ من الأزمنة، ولا في مكانٍ من الأمكنة على درجة واحدة، فمنهم مَنْ اعتنق التعليمَ رسالةً، ومنهم من أقحمته الأقدارُ في لُجَّةِ التعليم إقحامًا، ومنهم من صار التعليمُ وظيفتَهُ إذ لم يجدْ سواه وظيفةً، فهو يُزجي على رصيفِ التعليمِ سنواتِ عمره حتى تسنح له سانحةٌ فيتركه إلى غير رجعة، أو يدركه الموتُ، أو يُقالَ له: مُتْ قاعِدًا.

وليس دفاعًا عن المعلمين عندما نقول إن أسباب النجاح ليست جميعها مسؤولية المعلِّم، وكذا ليس مسؤولًا بمفرده عن تدنّي مستوى التعليم، فالبيئة التعليمية والتربوية ـ التي هو جزء منها ـ تتحمل جزءًا أكبر من المسؤولية، ولكن المعلم يكون من جانبه عامل نجاح في البيئة التعليمية، عندما يتصف بصفات

(*) مجلة **المعرفة**، العدد (151)، شوال 1428هـ ـ أبريل 2007م.

المعلم الناجح، إذ إن نجاح المعلم لا يستلزم نجاحَ العمليةِ التعليمية برِمَّتها، ولكنه أحد أهم شروطِ نجاحها، فالمعلم الذي أثَّر في تلاميذه، ونجح في التواصل معهم يُعدُّ ناجحًا، ولا يتأتى له ذلك إلا بتوافر شروط يلخّصها الدكتور غازي القصيبي بقوله: «تجربتي الطويلة مع المدرسين علمتني أن للمدرسِ الناجِحِ أربعَ صفات لا تفارقه، ولا يفارقها، الصفة الأولى: هي عشق المادة التي يدرِّسها، والصفة الثانية: هي محبة الطلاب الذين يدرسهم، والصفة الثالثة: هي القدرة على التواصل، والصفة الرابعة: هي التسامح الفكري»[1].

وعندما نطالع ما كتبه قدامى التلاميذ عن معلميهم، نجد الناجحين منهم يشتركون في هذه الصفات أو بعضها، وسأورد هنا بعض ما يؤكدُ أن هذه الصفات كانت أهم عوامل خلود الناجحين من المعلمين في ذاكرة تلاميذهم، وعندما يتحدثون فإن أول ما يثنون عليهم به هو شيء من هذه الصفاتِ أو كلِّها.

(1) **باي باي لندن**، غازي القصيبي، ط1، ص63، مكتبة العبيكان، الرياض2007م.

ففي باب مهنية المعلم وإخلاصه يتحدَّث الدكتور عبد الرحمن بدوي عن أحد معلميه الإنجليز فيقول: «كان يقوم بتدريس اللغة الإنجليزية مدرسون إنجليز غالبًا؛ واذكر منهم [معلمًا كان] جادًا كُلَّ الجِدِّ، لا أذكر أنه ابتسم ولو مرة واحدة، ناهيك أن يضحك، وكان حريصًا على تصحيح الأخطاء النحوية واللغوية في الحال عندما ينطق أي طالب بأي خطأ، ولو كان الخطأ شائعًا» وقد يعترض التربويون على هذا القدر من الصرامة، غير أن علينا ـ نحن المعلمين ـ أن نجتزئ الصفات الإيجابية، ونمزجها بصفات إيجابية أخرى، قد تكون مجتزأة أيضًا، لنخرج بنموذج مثاليٍ للمعلم، أو قريبٍ من المثالية المنشودة.

ويقول الشيخ علي الطنطاوي عن أحد معلميه: «كان له أبقى الأثر... كان يلقي الكلمة، فيصيب حبات القلوب منا، وأنا قد نسيتُ أكثرَ ما سمعتُ من دروسِ المدرسة ولكن أمثال هذه الكلمات التي تأتي في موضعها وتقترن بمناسبتها لا تزال في أذني، وفي قلبي»[1].

(1) **الذكريات**، الشيخ علي الطنطاوي، ج1، ص.ص (69 ـ 70) دار المنارة، ط1، جدة، 1989م، [بتصرف]

ويبقى الإخلاص ويقظة الضمير عامل تأثير لدى المعلمين، لا يبرح نفوس التلاميذ، ولنقرأ قول الشيخ يوسف القرضاوي عن أستاذه في المرحلة الابتدائية: «في هذه السنة تعرفت على أستاذ جليل كان يدرس لنا مادة المحفوظات. وكانت هذه الحصة حصة للراحة لمن يأخذها من المدرسين، ولكن هذا الأستاذ حوَّل هذه الحصة إلى محفوظات حقيقية، في كل أسبوع يختار لنا قطعة من النثر أو الشعر لنحفظها ويسوقنا بالترغيب والترهيب لحفظها. . . وهكذا كانت دروس المحفوظات دروسًا في الأدب والتربية والسلوك»[1].

ولو قُدِّرَ لنا أن نطلعَ على شعور القرضاوي وزملائه التلاميذ يومئذ، ربما لاكتشفنا أنهم كانوا يؤثرون الراحة التي تعودوها في هذه الحصة وأشباهها، غير أن الإخلاص على ما فيه من المشقّة، يبقى وجهًا جميلًا تزيدُ السنواتُ جلاءً وإشراقًا.

أما التمكن من مادة التدريس، وسعة العلم، والإحاطة، فنقرأ قول العقّاد عن أستاذه: «كان هذا النابغة الألمعي أوسع من لقيت محفوظًا في الشعر

(1) **ابن القرية والكتاب**، يوسف القرضاوي، ج1، ص.ص (166 ـ 167) ط1، دار الشروق، القاهرة، 2004م.

والنثر، كان يطارح وحده خمسة أو ستة من القضاة والمدرسين والأدباء»[1].

وعن سعة علم أحد معلميه وإحاطته يقول الشيخ يوسف القرضاوي: «كان يتدفق في معارفه كأنما يغرف من بحر، ويبهر سامعه كأن كلامه السحر، ويشرح الدقائق فيجليها، والغوامض فيكشف عن خوافيها، ويبين عن معانيها، لقد كنت أستمع إليه، وأنا معجبٌ متابع... فقد أحاط بعلوم الدين من التفسير والحديث والتوحيد والأصول والفقه، وبعلوم اللغة من النحو والصرف والبلاغة، وبالأدب وتاريخه، وبالعلوم الإنسانية العصرية»[2].

وهذا أسلوب المعلم في الصف يجعله محل احترام تلاميذه، حتى الذين احترفوا التدريس فيما بعد، فهذا الدكتور كمال الصليبي، يتحدَّث عن أحد معلميه، فيقول: «كان يُلقي علينا المحاضرات باللغة الانكليزية، بطريقةٍ دراماتيكيةٍ ممتعةٍ خاصَّةٍ به، حيثُ كان يقوم بتمثيل الأحداث، ولعب مختلف الأدوار

(1) **أنا**: عباس محمود العقاد، ص.ص (60 ـ 63)، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، د ت ط.

(2) **ابن القرية والكتاب**، ج2، ص.ص (16 ـ 17)، [بتصرف]

فيها، بأسلوبٍ لا مثيل له، وهو يتكلم بصوتٍ خافت يضطرنا إلى الهدوء الكامل لسماعه»[1].

ويتحدَّث الشيخ الطنطاوي بإعجاب شديد عن أحد معلميه فيقول: «كان آية في معرفة علوم الحديث»[2].

وعن أستاذ الخط يقول: «ولقد كان أستاذًا عبقريًا في الخط، والذي تركه من آثاره شاهدُ عدلٍ على ما أقول... كان يبري أقلام القصب لأربعين أو خمسين تلميذًا ويكتب لنا (المشق) لنخط مثله... ويصحّح ما كتبنا كل ذلك في (الحصة) وهي أقل من ساعة»[3].

ويصف معلمًا آخر فيقول: «كان الإمام في اللغة، والمرجع فيها، قَيَّد أوابدها وجمع شواردها، وحفظ شواهدها، وكان أعلم العرب بالعرب، عرف أيامهم وروى أشعارهم... دَرَّسَنا السيرة فجاء بشيء ما رأيت والله ولا سمعت بمثله، يصور الوقائع،

(1) **طائر على سنديانة**، كمال الصليبي، ص 139، دار الشروق، الأردن، ط1، 2002م، [بتصرف].

(2) **الذكريات**، ج1، ص77.

(3) السابق، ج1، ص92.

ويصف أمكنتها، ويشرح ما قيل فيها، ويدل على مراجعها، فكأننا كنا فيها»[1].

ويتحدَّث الدكتور إحسان عباس عن أستاذ التربية وعلم النفس في الكلية العربية بالقدس فيقول: «شخصية الأستاذ في تأثيرها كانت أقوى من الكتب، وكان أستاذًا مرنًا لا يتجمد عند حرفية التعليمات التربوية»[2].

ويصف الشاعر العراقي معروف الرصافي سعة علم أستاذه فيقول: «والحق [أنه] كان من المتضلعين في العلوم العربية من صرف ونحو وبلاغة وبيان وعروض وغير ذلك من علوم العربية»[3].

وبالحب يملك الأستاذُ قلوبَ تلاميذه، فهذه فدوى طوقان، تشعر بحبِّ معلمتها لها قبل أن تبادلها بحبها حبًا أعمق وأكبر، فتقول: «أحبَّتني معلماتي وأحببتهنَّ، وكان منهن من يؤثرنني بالتفات خاص، أذكر كيف كان يشتدُّ خفقان قلبي كلما تحدثت معي

(1) السابق، ج1، ص120.

(2) **غربة الراعي**: د. إحسان عباس، ص. ص(135 ـ 136)، ط1، دار الشروق، بيروت، 1996م.

(3) **الرصافي يروي سيرة حياته**، د. يوسف عز الدين، ص 228، ط1، دار المدى، سوريا، 2004م، [بتصرف]

معلمتي المفضَّلة، والتي أحببتها كما لم أحب واحدة من أهلي، في تلك الأيام»[1].

أما حُسنُ الخلق فتلك الهبة الربانية التي يمنحها الله لمن يشاء من عباده، وقد وصف الله نبيه صلى الله عليه وسلَّم بهذه الصفة على وجه الثناء فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2] وكان ﷺ يقول: «إن خياركم أحاسنكم أخلاقا»[3] وقد اشتهر بحسن الخلق بعضُ المعلمين، حتى أسبغ تلاميذهم عليهم صفات تشبه الخيال، وحسبنا أن نشير إلى ما كتبه اثنان من كبار الكُتّاب عن أستاذ واحد، حتى لكأنهما يكتبان عن شخصية أسطورية، حين يقول الدكتور عبدالرحمن بدوي عنه: «لقد كان النبل كله، والمروءة كلها. كان دائمًا هادئ الطبع، باسم الوجه، لا يكاد يغضب، وإن غضب لم يُعبِّر عن غضبه إلا بحمرة في وجهه وصمتٍ كظيم: لقد كان آية في الحلم والوقار. لكنه وقارٌ عفوُ الطَّبْعِ...

(1) **رحلة جبلية رحلة صعبة**، فدوى طوقان، ص 52، ط4، دار الشروق، الأردن 2005م
(2) سورة القلم، الآية: 4.
(3) **صحيح البخاري.**

وكان آية في الإحسان إلى الآخرين، ما لجأ إليه مظلوم إلا حاول إسعافه، أو صاحب حاجة إلا بذل ما استطاع حتى لو كان من ماله»[1].

وعن هذا المعلم نفسه يقول الكاتب الكبير نجيب محفوظ: «هو مثال للحكيم كما تتصوره كتب الفلسفة، رجل واسع العلم والثقافة، ذو عقلية علمية مستنيرة، هادئ الطباع، خفيض الصوت لا ينفعل ولم أره مرة يتملكه الغضب»[2].

بربكم أيملك إنسانٌ ـ فضلًا عن تلميذ ـ نفسه أمام هذه السجايا دون أن يمحض صاحبها الحُبَّ والإجلال.

أما التشجيع والتوجيه والتأثير في التلاميذ، فتلك خلاصة النجاح، وذروة سنامه، وما أكثر ما يعزو الناجحون نجاحهم إلى معلمين أخذوا بأيديهم، توجيهًا ونصحًا وتأثيرًا، ولنقرأ بعض تلك الشهادات التي توَّج بها التلاميذُ إخلاصَ مُعَلِميهم، ومن ذلك قول الدكتور سهيل إدريس عن أستاذه في الأدب: «هو الذي بثَّ فيَّ

(1) **سيرة حياتي**، عبد الرحمن بدوي ـ ج1 ـ ص 61 [بتصرف]

(2) نجيب محفوظ: **صفحات من مذكرات وأضواء جديدة على أدبه وحياته**، رجاء النقاش، ص63، ط1، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، 1998م.

حمية الأدب، وكان له أسلوبٌ تشويقي جميل، وكان كاتبًا معروفًا وقد تأثرتُ به وبكتابته»[1].

ويقول الشاعر عبد الوهاب البياتي: «وما زلتُ أذكر مُدَرِسَ اللغة العربية... كان من المتحمسين للقضية العربية فكان يُلقي كلماتٍ حماسيةً في المناسباتِ المدرسية، وحين عرف بقدراتي الأدبية، دعاني إلى إلقاء بعض القصائد... لقد لَعِبَ هذا المدرسُ دورًا كبيرًا في خلق جيلٍ معادٍ للاستعمار وبثِّ الحماسة القومية لدى الطلاب..»[2].

ويتحدث الأديب والروائي جبرا إبراهيم جبرا عن أستاذه في اللغة العربية فيقول: «كان لحُبه اللغة، يُعْدِينا بما يُحبُّ، ولا يَقْصُرُ درسَهُ على المقرر، لتلك السنة، لقد علمني من قواعد اللغة في سنتين، أو أكثر بقليل، ما لم أتعلم من أحدٍ سواه، وما بقي أساسيًا حتى اليوم في تعاملي مع الكتابة»[3].

---

(1) **ذكريات علي الطنطاوي**، ج4، ص 57، ط2، والنص في **ذكريات الأدب والحبّ**، لسهيل إدريس، ص43، ط2، دار الآداب، بيروت 2002م.

(2) **مدن ورجال ومتاهات**، عبد الوهاب البياتي، ص 38، ط1، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 1999م، [بتصرف]

(3) **البئر الأولى**، جبرا إبراهيم، ص 135، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2001م.

وفي لقاء معه يقول الإذاعي الشهير ماجد الشبل، متحدثًا عن تشجيع أحدِ معلميه: «لقد التقط موهبتي منذ البداية، وعرف ولعي الشديد باللغة العربية، فأخذ يُشجعني حتى الثانوية»[1].

ويبلغ التشجيع بأحد المعلمين أن يمدح تلميذه شعرًا، ويتنبأ له بمستقبلٍ باهرٍ، وقد تحقّق له ذلك، هذا ما فعله أحد معلمي أحمد الشرباصي، حين لاحت من تلميذه بشائر النجابة، والنبوغ فقال:

قبسٌ من الإصلاح لاحَ بصيصه
سيزيدُه كرُّ المدى إشعالا
وإذا رأيتَ الفجرَ يبسمُ ضوؤهُ
فارقبْ لأنوار الضحى إقبالا
فالبحرُ ماذا كان؟ كان جداولاً
والبدرُ ماذا كان؟ كان هلالا
والأُسدُ في وَثَبَاتِها وَثَباتها
درجتْ على آجامها أشبالا[2]

ويتحدَّث الدكتور غازي القصيبي عن معلم اللغة

(1) مجلة **الإعلام والاتصال**، عدد 105، ص 56، ربيع أول 1428هـ آذار/مارس 2007م.

(2) **أعلام العصر**، محمد رجب البيومي، ص319، ط2، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1998م.

العربية في المرحلة الثانوية، فيقول: «كان مُدرس اللغة العربية قارئًا موسوعيًا، وكان اطلاعه على آداب اللغة العربية يدعو إلى الدهشة، سُرَّ الأستاذ بطالبه الموهوب، وسرعان ما نشأت بين الاثنين علاقة تشبه علاقة الابن بأبيه، يستمدُّ الطالب/الابن منها الكثير من الثقة بالنفس والاعتزاز بالموهبة، ويستمدُّ المدرس/الأب منها الكثير من السرور المشوب بالفخر»[1].

وهكذا يُتِمُّ هذا المعلم ما سَبَقَ أن بدأه معلم القصيبي في المرحلة الابتدائية الذي قال عنه: «لقد كان من أسباب تعلقي بالأدب التشجيع الذي لقيته من أحد مدرسينا في تلك الفترة... كان قارئًا ذواقة يحب القصص ويجيد روايتها، وكان المشرف على النشاط المسرحي بالمدرسة، ولا تزال في مكتبتي حتى اللحظة قصص تلقيتها منه كهدايا تشجيعية في مختلف المناسبات»[2].

وقريبٌ من هذا الأثر الذي تركه المعلم في نفس الشاعر القصيبي، ذلك الأثر الذي تركه معلم الشاعر

(1) **باي باي لندن**، ص 57، سابق.
(2) **سيرة شعرية**، غازي القصيبي، مطبوعات تهامة، ج1، ص 17، جدة، 1988م.

نزار قباني، في نفسه وفي شعره ويصف ذلك التأثير فيقول: «إنه لمن نعمة الله عليَّ وعلى شعري معًا، أنَّ معلِّم الأدب الأول الذي تتلمذتُ عليه، كان شاعرًا من أرق وأعذب شعراء الشام... ربطني بالشعر منذ اللحظة الأولى... ومن حسن حظي، أنني كنت من بين التلاميذ الذين تعهدهم هذا الشاعر المفرط في حساسيته الشعرية، وأخذهم معه في نزهاته القمرية، ودلَّهم على الغابات المسحورة التي يسكن فيها الشعر..»[1].

وعن هذا الأستاذ نفسه يقول الأديب عبد الغني العطري: «وكان أستاذ الأدب أحب أساتيذ المدرسة إليَّ. فعدا حبي وتعلقي بالأدب، كان مَثَلي الأعلى في لباقته، ووقاره واتزانه وأخلاقه الرفيعة، وحضور شخصيته، وسلوكه المثالي مع طلابه»[2].

ومهما بلغ بنا التفاؤل، فإننا لا نستطيع أن نتجاهل تراجعًا ملحوظًا، يجتاح التعليم، والمعلمين، والتلاميذ، معًا، وقد شامه قبلنا الشيخ علي الطنطاوي

(1) **قصتي مع الشعر**، نزار قباني، ص.ص(46 ـ 47)، ط6، منشورات نزار قباني، بيروت، 1982م.

(2) **عبقريات من بلادي**، عبد الغني العطري، ص 455، ط1، دار البشائر، 1996م [بتصرف].

حين ذكر بعض معلميه ثم قال: «لقد كثر اليوم الأساتذة من حملة الشهادات، وأصحاب الدكتورات ولكن ذلك الطراز لم يعد له وجود»[1]. وكذا الروائي نجيب محفوظ حينما عقد مقارنة بين جيلين من المعلمين فقال: «إن ذلك الجيل من الأساتذة لا يمكن أن يتكرر في ظل ما نسمع عنه الآن من المستوى الذي انحدر إليه الجيل الحالي. كان ذلك الجيل من الأساتذة متمكنًا من عمله، وعلى درجة كبيرة من الثقافة والموهبة، وانعكس ذلك بالطبع علينا نحن تلاميذ ذلك الزمن»[2].

«والحق معهم في التفريق بين ذلك الجيل وجيل اليوم، إلا أن هذا التحول جاء نتيجة لعوامل عديدة وتحولات كثيرة، لا يتحمَّل المعلم مسؤوليتها جميعًا، وإن أسهم فيها، وإن كانت رسالته وطلابه أول ضحاياها، وأبرز تلك العوامل؛ التغير في مفهوم التعليم، فهو اليوم غيره منذ نصف قرن، فقد أضحى عند كثير من المعلمين لا يعدو بابَ رزقٍ للمعلم، وبابَ شهادة للتلميذ، وأشهد مع ذلك أن في المعلمين

(1) **الذكريات**، الشيخ علي الطنطاوي،ج1، ص118، سابق.
(2) نجيب محفوظ: **صفحات من مذكرات**، ص61، سابق.

بقيةً باقيةً من الصادقين، المخلصين لرسالتهم، وإن قَلَّتْ وندرتْ فلم تُعْدَم يومًا»[1] وفي اعتقادي أن أقصر السبل إلى النجاح، أن نَقْبِسَ من صفاتِ أولئك الناجحين، وأن نستبطن قولَ السهروردي:

فَتَشَبَّهوا أن لم تكونُوا مثلَهم
إن التَّشَبُّهَ بالكرام فلاح

إننا إن فعلنا ذلك ذقنا حلاوة النجاح، ولعمرك إنَّه الثمن الحقيقي لِجُهْدٍ أَلِفَ باذِلُهُ شكوى النكران.. فهل نفعلُ ذلك؟ هذا ما أرجوه وأتمناه..!!

(1) **عندما كان الكبار تلامذة**، إبراهيم مضواح الألمعي، ص.ص(59 ـ 60)، ط1، مركز الراية للتنمية الفكرية، جدة، 2005م.

تربية تمزيق الرأي المخالف(*)

جميلٌ أن تُشكَّل اللجان لمتابعة ما يقدَّم لأبنائنا الطلاب من مراجع ومقررات فتُفحص وتدقق، وهذا ما يجعل الحريصين من الآباء يطمئنون إلى ما يُقدَّم لأبنائهم من مواد علمية، ومع ما يبعث هذا الحرص من السرور في نفوس المربين، فإنه لا بدَّ أن ندرك أننا في مرحلة زمنية (حرجة) لم تعد المدرسة ـ بمدرسيها ومقرراتها ومكتبتها ـ النافذة المعرفية الوحيدة، بل أصبحت جزءًا من نوافذ المعرفة المتعدّدة، والقائمون على التربية يبذلون جهودًا كبيرة في سبيل الحفاظ على القيم والأخلاق والعقائد، ولكن هذه الجهود تكاد تنحصر في مزيدٍ من الرقابة والتدقيق على المقررات ومحتويات المكتبة المدرسية، وهذا أمر في غاية الأهمية، إلا أن جدواه آخذة في الانعدام أمام تعدد نوافذ الثقافة بوجهيها الحسن والقبيح، يتضاءل دور

(*) مجلة **المعرفة**، العدد (60)، ربيع أول 1421هـ ـ يوليو2000م.

المدرسة إلى جانبها يومًا بعد يوم، ولا أبالغ حين أقول إنها تبعثر ما تعمل المدرسة على تجميعه، فالتلفزيون بقنواته الفضائية التي لا تستأذن في دخول أكثر البيوت وهناك الإنترنت، ومقاهي الإنترنت!! والمجلات، (وثقافة الشارع) التي هي نتيجة احتكاك مباشر بأنماط مختلفة من الأقران.

وبالرغم من تعدد مصادر المعرفة ما زال المربون يوجهون جهودهم إلى المدرسة، ويغيب الدور المنوط بهم في التأثير من خلال مصادر الثقافة الأخرى، فهي ثقافة مربية شئنا أم لم نشأ، وليس للتربية وجه واحد بل هي كأكثر الأشياء بوجوه متعددة، وقد رأينا آثار هذه المصادر جليًا من خلال الفرق الشاسع بين جيلين متتاليين يفصل بينهما عقد من الزمن.

دعاني لهذه المقدِّمة اتصالٌ وردني من مدير إحدى المدارس، يتساءل عن تعميم وزاري يوجه بسحب بعض الكتب من المكتبة المدرسية، اعتمادًا على رأي لجنة (فحص الكتب) وقد اشتمل البيان على سبعة عشر كتابًا، منها ثمانية أوصى التقرير بسحبها من المكتبات المدرسية، وكتاب يُسحب من المكتبات المدرسية ويودع المكتبات العامة، (وسبعة كتب) تعدل

بعض الألفاظ والمصطلحات، وتطمس بعض الصور.

وكتاب أخير هو (تعريف عام بدين الإسلام) لفضيلة الشيخ علي الطنطاوي ـ رحمه الله ـ حكمت اللجنة عليه (بنزع الصفحات من 79 إلى 84) دون تحديد الطبعة أو تاريخها أو الموضوعات، أو دار النشر، ولعل ذلك لأن الطبعة الموجودة في المكتبات المدرسية واحدة، وهي الطبعة العاشرة ـ دار الفكر ـ دمشق 1983 م، ولكن كان ينبغي أن تذكر اللجنة حيثيات القرار، وهذا الحكم هو الذي تساءل عنه الأستاذ الكريم، وهو الذي استوقفني أيضًا لسابق اطلاعي على الكتاب، ولأن مؤلف الكتاب هو الشيخ (علي الطنطاوي) رحمه الله الذي تربينا على أحاديثه، وتأدبنا على كتبه الكثيرة في شتى الفنون.

وهذا الحب الذي زرعه الطنطاوي في نفسي مسموعًا ومقروءًا؛ لا ينسيني أنه بشر يجتهد فيصيب ويخطئ، ويؤخذ من كلامه ويرد، وهذا الحب أيضًا لا يلغي قاعدة (الحق أحق أن يُتبع) ولكنني بعلمي القليل، وسابق قراءتي للكتاب، وإعادة قراءة الصفحات المشار إليها، وجدت أن الصفحات المشار إليها اشتملت على الكلام على (آيات الصفات)،

والمحكم والمتشابه وموقف المسلمين منها، وكيف فهموها؟.

ولن أخوض في مناقشة رأي الشيخ الطنطاوي، لأن المسائل المتعلقة بآيات الصفات تدق على الأفهام، والخوض فيها مزلق خطر، كما أشار الطنطاوي حيث قال ـ في الموضع نفسه ـ: «وأن على المؤمن ألا يطيل الخوض في معناها، وألا يتتبعها فيجمعها ليفتن الناس بالبحث فيها» أ.هـ.

ولذلك فإني أكتفي بإبداء ملحوظاتي حول منهجية (لجنة فحص الكتب) التي أوصت بنزع الصفحات من كتابٍ فريدٍ في بابه، طبع أكثر من عشرين طبعةً، وترجم إلى عدة لغات، وكان ـ بفضل الله ـ سببًا في نقل مسائل العقيدة من أسلوب علماء الكلام الذي لا يكاد يفهمه إلا النخبة المتخصّصة، إلى مسائل واضحة مباشرة تخاطب عقل المسلم بأجمل لغة، وأيسر أسلوب، ممتطيًا المثل المضروب بعناية، لإيصال الفكرة إلى القارئ حتى من غير المسلمين.

وليكن رأي الشيخ الطنطاوي ليس رأي الجمهور في بعض التفاصيل الدقيقة في الموضوع، أفلا ننبه على مخالفته للرأي الذي اخترناه ونكتفي بذلك؟! ثم

ألا يستحق هذا الرأي ـ وإن كان مخالفًا ـ أن يُسمع ويقرأ؟! ثم هل النزع والقطع والإقصاء هو منهج السلف ـ الذين نتمسك برأيهم ـ في محاورة المخالف؟! وليكن الطنطاوي مخطئًا أليس في ثقتنا بحسن نيته ونقاء سريرته ما يشفع لكتابه من هذا الحكم القاسي؛ أو يخفف منه؟! ثم هل منهج السلف هو إقصاء المخالف وإلغاء فكرته تمامًا؟! بالتأكيد لم يكن كذلك؛ فلو كان كذلك لما وصلت إلينا كثير من كتب التراث التي امتلأت بآراء المخالفين ومناقشتها، والكشّاف للزمخشؤي، وتفسير القرطبي شاهدان على ذلك.

ثم أليس الأولى في خضم طفرة وسائط المعلومات والاتصالات أن نهيئ أبناءنا للتمييز بين الآراء والأقوال والأفعال؛ خطئها وصوابها، خيرها وشرّها، ليحاكموا الأشياء بعقولهم، بدلًا من أن نقوم بالوصاية الدائمة؟!

إننا مهما بذلنا من جهود لن نستطيع أن نحجب أبناءنا عن كل خطر، يستوي في ذلك ما يمس دينهم وعقائدهم، أو قيمهم وأخلاقهم؛ أفليس الأجدى أن نمنحهم وسائل الدفاع الذاتي، بسلاح الثقافة والوعي والمواجهة، عوضًا عن القطع والمحو؟! إن أبناءنا ـ

اليوم ـ هم أحوج ما هم إلى الإعداد، لمقاومة ما يحدق بهم من أخطار فكرية وأخلاقية لم يعد سلاح المنع والقطع مجديًا معها، ولكن المجدي، أو هو الملاذ الأخير، أن نُعِدَّهم ليكون الشاب ـ كما يقول الرافعي ـ في اللهب ولا يحترق؟!

المروءة سيدة الأخلاق(*)

تأسرني مواقف المروءة، من لدن قول يوسف الصديق عليه السلام: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾، رافضًا أن يُقابل كرم العزيز بالخيانة، وموقف موسى عليه السلام ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾. وموقف نبينا محمد ﷺ من أولئك الذين ناصبوه العداء وألحقوا به وبصحابته الكرام صنوف الأذى على مدى ثنتين وعشرين سنة، فلما تمكنت سيوف المسلمين من رقابهم قال لهم: (اذهبوا فأنتم الطلقاء).

تأسرني تلك المواقف النبيلة غير المصطنعة التي كانت السيادة فيها للمروءة، وإنه لا يعلو بالإنسان في عيني شيء مما يفعل أو يذر كما يفعل موقف كانت مروءته المحرك الوحيد له.

(*) **المجلة العربية**، العدد (446)، ربيع الأول 1435هـ ـ يناير 2014م.

ولأن المروءة قيمة تتقاطع مع قيم الصدق والكرم والوفاء، فهي قيمة عليا تجمع هذه القيم، وقد اشتهر أناسٌ بالمروءة حتى صارت عنوانًا لهم، وصاروا عناوين لها، من مثل: معن بن زائدة[1]، وأبي دلف العجلي[2]، وخالد بن يزيد[3]، والفضل بن الربيع[4]، وأشباههم، من ذوي المروءات في القديم. وكتب الأدب والتراجم مليئة بقصص كانت المروءة محورَها، من مثل قصة الفضل بن الربيع حين زوَّرَ رجلٌ يُحسنُ توقيعه، لوكيل الفضل كي يمنحه ألف دينار، وصادفَ أن حضر الفضلُ ساعةَ التسليم، فقرأ الخطاب المزوَّر، ولمح فزعَ الرجل، فلم يكن من الفضل بن الربيع إلا أن أكد للوكيل أنه من كتب الخطاب، وأمره بدفع المال للرجل، ويمرُّ الموقف بسلام.

ومن المعاصرين الذين اشتهروا بالمروءة غير

(1) معن بن زائدة: (توفي سنة 150هـ / 768م) أحد الأمراء العرب، اشتهر بالكرم والمروءة.

(2) أبو دلف العجلي: (توفي سنة 225هـ / 839م) شاعر وأديب وقائد في زمن الدولة العباسية.

(3) خالد بن يزيد بن معاوية: (توفي سنة 90هـ / 709م) حفيد معاوية ابن أبي سفيان، كان مهتمًا بالعلوم وراعيًا للمشتغلين بها.

(4) الفضل بن الربيع: (توفي سنة 208هـ / 823م) كان وزيرًا للخليفة العباسي الأمين.

قليل من الرجال ذوي المروءات، الذين شهد لهم كلٌّ من عرفهم بهذه الخصلة التي تنطوي على فضائل أخرى، أو شهدت لهم مواقف عابرة، غير أنها تدل على ما وراءها من سمات تلك النفوس المطبوعة على المروءة.

ومن مواقف المروءة التي أسرتني تلك القصة التي رواها الأديب الفلسطيني الدكتور إحسان عباس[1]، في كتابه (غربة الراعي) حين كان مبتعثًا، للدراسة في القاهرة، فلما حدثت نكبة 1948م، انقطعت المؤونة التي كانت تُرسل إليه من حكومة الانتداب في فلسطين، وكان الدكتور شوقي ضيف[2] أستاذًا في الجامعة، فعرض عليه المساعدة، ولكن إحسان عباس اعتذر عن قبول المساعدة لأنه لا يعرف إلى أين ينتهي به الأمر، فطلب منه شوقي ضيف مسودة بحث كان اطلع عليه سابقًا لدى إحسان عباس، فأخذ البحث، وجاءه بمبلغ من المال، وأخبره بأن هذا المبلغ من دار نشر اشترت الكتاب لطبعه، وتبين له

(1) د. إحسان عباس: (1930م ـ 2003م) ناقد ومحقق وأديب فلسطيني.

(2) د. شوقي ضيف: (1910م ـ 2005م) أديب وعالم لغوي مصري رئيس سابق لمجمع اللغة العربية.

فيما بعد أنه لم يقدمه للنشر، وأن المبلغ كان من مال شوقي ضيف نفسه، أراد مساعدته دون أن يشعره بذلك.

وكذا قصة رواها الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي[1]، في كتابه (مدن ورجال ومتاهات) حين كان متجهًا من فِيّينا إلى موسكو، وكان لا بُدَّ من الهبوط لساعات في مطار مدينة (كييف)، وقد نفدت جميع نقوده، وبرّح به الجوع والعطش، وكان عليه الانتظار في مطعم المطار، حتى يحين موعد إقلاع الرحلة مجدّدًا إلى موسكو، وبينما كان ينتظر جائعًا وحائرًا، تقدم إليه رجلٌ وسأله: ماذا تطلب من الطعام؟ فقال البياتي: لستُ جائعًا. فقال: بل أنتَ جائع، وهذا ظاهرٌ على وجهك. فقبل ضيافته، لأن الرفض يعني الموت جوعًا، حسب قول البياتي، الذي علم بعد الحديث مع ذلك الرجل أنَّه عالم ذره روسي كان يحضر مؤتمرًا في فيينا.

وتشبه هذه القصة تلك القصة التي أوردها

(1) عبد الوهاب البياتي: (1926م ـ 2001م) شاعر عراقي من مؤسسي مدرسة الشعر الحر.

الكاتب الكبير ميخائيل نعيمة[1]، في كتابه: (سبعون...)، حين سافر من لبنان إلى حيفا، وبعد ليلتين ونهار من السفر في البحر وصلتْ السفينة إلى ميناء حيفا، وهو صبي صغير لا يعرف كيف سينتقل من حيفا إلى الناصرة، ولا يعرف وسائل النقل بين حيفا والناصرة، حيث سيدرس في دار المعلمين الروسية في الناصرة، فوقف يحمل حقيبته الصغيرة بالقرب من سُلَّم الباخرة، واعتراه خوف من منظر القوارب المتسابقة من جهة المدينة إلى حيث رست الباخرة، فقد كان منظر البحّارة يبعث الرعب في نفسه وهو صبي صغير ووحيد في مدينة غريبة، وفي هذه اللحظة الحاسمة أحسَّ يدًا تمسك بيده، وصوت رجل يسأله: أأنت وحدك؟ فأجابه: نعم. فشد على يده وقال له اتبعني، يقول نعيمة: «وللحال فارقني الشعور بالغربة، وتغلغلت الطمأنينة في دمي» ودفع الرجل أجرة البحَّار الذي حملهما إلى البر، واصطحبه إلى بيته، ورحّب به وعرَّف زوجته وأولاده إلى الضيف، وأمر له بالماء والصابون، وشاركهم في الفطور، وأرسل خادمه

(1) ميخائيل نعيمة: (1889م ـ 1988م) مفكر لبناني من رواد النهضة الفكرية العربية.

ليحجز له مقعدًا في العربة التي ستسافر إلى الناصرة، وتحديد موعد تحركها، ثم أمر الخادم أن يحمل حقيبته ويصحبه إلى مكان العربة، يقول ميخائيل نعيمة: «وقد فاتني، في غمرة امتناني وسروري أن أسأل الرجل عن اسمه، وعن عمله، وعن دينه».

وهذه قصة أخرى يرويها الأديب المصري الدكتور سمير سرحان[1]، في كتابه (زمن العمر الجميل) حينما ابتعث للدراسة في أميركا، وكيف أنه لما التقى المستشار الثقافي الدكتور مصطفى الشكعة[2]، وقد بدأ الشعور بالغربة يتسلل إلى نفسه، فشعر بالطمأنينة، وكيف أن الدكتور مصطفى الشكعة وهو لا يعرفه من قبل استضافه في أحد مطاعم واشنطن، وقد لمح مصطفى الشكعة أن ملابس الشاب القادم من القاهرة قليلة، وخفيفة، لا تحميه من البرد، فأخذه، إلى السّوق، وابتاع له بعض الملابس التي سيحتاج إليها، من ماله الخاص، حتى أن سمير سرحان شعر أنه يلتقي أباه الراحل مجددًا وأنه من

(1) د. سمير سرحان: (1941م ـ 2006م) أديب مصري ورئيس سابق للهيئة المصرية العامة للكتاب.

(2) د. مصطفى الشكعة: (1917م ـ 2011م) مفكر مصري وأستاذ جامعي مرموق.

يساعده على قياس الملابس، ثم ودعه إلى جامعة انديانا التي قد تم قبوله فيها.

هذه حكاياتٌ ومواقفُ طبعتْ المروءةُ بصمتَها الجميلة على تفاصيلها، وهي على بساطتها تترك أعمق الأثر في النفوس، وتزرع الأمل بأن الخيرَ سمةٌ إنسانية، سيبقى موجودًا أينما وجدت الإنسانية، وما أحوج الأجيال المتعاقبة إلى تخليد مثل هذه المواقف، وحكايتها في سياق إشاعة قيمة المروءة التي هي نقطة التقاء القيم الإنسانية النبيلة. وبثها في مفردات مناهجنا التربوية، بأسلوبٍ أدبي يحبِّبُها إلى قلوب الناشئة، واستحضارها من خلال الأدب والفن، وخطابنا الإعلامي المقروء، والمسموع، والمرئي.

كُلُّنا شِلَلِيّون(*)

غفلت المعاجم عن مصطلح الشِّللية، أو هو مصطلح جديد، ومع غياب أصله اللغوي، فإني أراه لغويًا؛ نسبة إلى (الشِّلة) ولعلها مفردة مصحّفة عن كلمة (ثُلَّة) التي تعني: الجماعة من الناس. قال الله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة 39 ـ 40]، أما من حيث المعنى الحقيقي فلعل نسبته إلى (الشَّلل) أقرب، فالشَّلل تعطيل بعض الأعضاء عن أداء أدوارها الطبيعية، و (الشِّللية) تعطل أفرادها عن أداء الأدوار المنوطة بهم على وجهها الأكمل، لأن من تلك الأدوار ما يحتّم أن يكون هناك فروق بين أفراد الشلة الواحدة من المؤسسة الواحدة، والشِّللية بطبيعتها اشتراك في الحقوق تحت شعار (أي واحد يمون).

الشللية إفراز طبيعي للضعف البشري فالإنسان لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن الناس، ثم هي أيضًا نتيجة

(*) مجلة **المعرفة**، العدد (58)، محرم 1421هـ ـ أبريل 2000م.

لعدم الثقة بالنفس وعدم الإيمان الكامل بالعمل أو الهدف، فيتشرنق (الشللي) حول نفسه في (شلة) تحيط به طوعًا أو كرهًا.

وربما كان اتفاق المصالح (المشروعة أو غير المشروعة) هو القاسم المشترك بين أعضاء الشلة الواحدة.

وأحيانًا يكون المبدأ الذي تقوم عليه (الشِّللية) هو (خفة الظل) التي تجعل (الشللي) يتزعم مجموعة من المتظرفين الذين يتخففون لينالوا الرضا، فإذا نالوه نالوا ما يريدون.

ومن أسوأ الحالات في قاموس (الشللية) تلك التي تذوب فيها الفروق فيصبح سائق مدير المؤسسة (الشللي) من صناع قرارات إدارية ربما يعجز عن اتخاذها نائب المدير، الذي لا ينضوي تحت مظلة الشلة.

في كثير من الأحيان يصبح المدير (الشللي) بلا حواس، يرى بعيون (عيونه) الذين يرون الأمور كما يحلو لهم، ويسمع بآذانهم، ويتكلم بألسنتهم، وربما قرروا نيابة عنه.

ولكنَّ أخطر أنواع الشللية ـ في رأيي ـ تلك التي

تأتي عن طريق زوجة مدير المؤسسة فتؤثر في قراراته بالشفاعات والالتماسات، ذات الأثر البالغ، تلك التي كشَفَ الفرزدق سبب فاعليتها حين قال:

ليس الشفيعُ الذي يأتيك مُؤْتزرًا
مثل الشفيع الذي يأتيك عُريانا

ومع احترامي لرأي الفرزدق إلا أنني أعتقد أنه قال ذلك وهو لا يزال متأثرًا بهزيمته في معركته مع (النوار) فأسأل أعداء الشللية ومحاربيها: هل كل الناس صغيرهم وكبيرهم وقريبهم وبعيدهم يقفون عندهم في منزلة واحدة؟! ولا أشك أن الجواب سيكون نفيًا، فالرسول صلى الله عليه وسلَّم يقول: (الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف) ـ صحيح البخاري ـ ومن هذا المنطلق فإن الأمر لا يخلو من نسبية، فما لا يجوز لأحد يجوز لفلان، صحبة السنين، ورفقة السفر، وليالي الأنس، كيف لا والألفة تؤثّر في الجمل الهصور والكلب العقور؟! أفلا تؤثّر في الإنسان ذي الأحاسيس المرهفة؟!

كلنا شلليون نمارس الشللية في حياتنا اليومية بجميع أشكالها، ولكن علينا أن نكبِّل

هذا المارد ـ الذي يتضخم من حولنا ـ ليبقى خارج إطار العمل.

ومن الطبيعي أن الشللية كانت تمارس قبل ظهور المصطلح، فكل خليفة أو والٍ أو عامل كان له ندماؤه وحاشيته الذين يؤثّرون ـ في أكثر الأحيان ـ في القرار، حتى غلب على بعضهم اسم (الصاحب، والنديم).

ولا شكَّ في أننا نمارس الشللية ونرضاها عندما نكون داخل دائرتها فنتماهى فيها حتى لا نراها، فإذا أصبحنا خارج الدائرة أبصرناها فنقمنا عليها وأوسعناها ذمًا. وهو ما يدفعني إلى الإقرار بأننا جميعًا شلليون بلا استثناء، ولكن تتفاوت نسب أدوارنا في الممارسة حسب أهمّية مواقعنا الوظيفية، وحسب إخلاصنا وتجردنا من الذاتية في مقابل ذوباننا في الواجب، وصدق سعينا إلى الهدف.

وقد رأيت بعض الإداريين الذين يُسَخِّرون الشلة لمصلحة العمل فالقرب منه بقدر التفاني في العمل، ولكن هل نسمي هذه شللية؟! إذا سمّيناها شللية فبهذا يكون للشللية وجه حسن، ولكن غلب إطلاق المصطلح على الوجه القبيح.

ويظهر الوجه الأقبح للشللية في الأوساط

الثقافية، في خضم الاختلاف في وجهات النظر حول مذهب أدبي أو فكري، حتى تكاد كل صحيفة تمثل اتجاهًا لمدرسة يقرر موادها رئيس التحرير، ويكتب فيها الذين يحملون المنهج نفسه، بدون اعتبار لقيمة الكتابة الفنية أو الأدبية أو الفكرية.

يطلُّ علينا وجه ثانٍ للشللية الثقافية، ترسمه أقلام معارف رئيس التحرير، أو معارف من يعرفه. ووجه ثالث، يظهر في صورة كاتب أو شاعر ذي اسم براق وشهرة عريضة، فلا تقف كتابته أمام مساءلة الذوق أو الإبداع، بل تلتهم مساحة كبيرة من الصحيفة، فإذا قرأتها وجدتَ طلاسم وأحاجي، أو كلامًا سخيفًا كُتب في حالة وسطى بين اليقظة والمنام.

ومن أسوأ أشكال (الشللية الثقافية) ما يكون المبدأ فيه (شَيِّلْني وأشَيِّلَك) ذلك النوع القائم على الردح الثقافي، بتدبيج مقالات المديح، وخلع الألقاب، والصفات العبقرية، من أفراد الشلة الواحدة، بعضهم لبعض.

وقد رأيت مرةً مَن يمتدح مقالًا (لفلان) وكنت قرأته، وخلع عليه من الصفات ما شككني في فهمي، فلما نقدتُ المقالَ وذكرت بعضًا من جوانب ضعفه، اعتذر بأنه لم يقرأ المقال، وإنما رآه؛ حينئذ عرفت أنه

شهدَ شهادةَ الزور تلك لأن فلانًا الممدوح ينتمي إلى شلتهِ الثقافية.

كثرت وجوه الشللية حتى جزمتُ أنها تتلبس كلَّ الوجوه، ولكنها محكومة بالنسبية، غير أن علاقتها بالإنتاجية، دومًا، علاقة عكسية، فكلما زادت الشللية نقصت الإنتاجية، والعكس.

أعيدوا لقبه المسلوب(*)

الأستاذ كلمة فارسية ذكرها أبو منصور الجواليقي (المتوفى 540هـ) فقال: «يقولون للماهر بصنعته (أستاذ) ولا توجد هذه الكلمة في الشعر الجاهلي»[1].

أما مجمع اللغة العربية في القاهرة فيقول: «الأستاذ: المعلِّم (معرّب) والماهر في الصناعة يعلمها غيره»[2] وكذلك في المعجم الوجيز. وقال أبو تراب الظاهري: «قال الشهاب الفيومي الأستاذ كلمة أعجمية، والهمزة عنده أصلية فيه، وقال الخفاجي في الشفاء ص 34: أستاذ، ليس بعربي لأن مادة ستذ غير

(*) مجلة **المعرفة**، العدد (53)، شعبان 1420هـ ـ نوفمبر 1999م. (كانت كتابة هذا المقال في إثر توجه وزارة التربية والتعليم نحو منع استخدام كلمة أستاذ للمعلمين، والاكتفاء بوصف معلم).

(1) أبو منصور الجواليقي، **المعرَّب من كلام الأعجمي**، ص 19، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998م

(2) **المعجم الوسيط**، ج1، ص17، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر، استانبول، د ت ط.

موجودة، ولم يوجد في كلام جاهلي»[1].

إذًا فكلمة «الأستاذ» فارسية الأصل، ووزنها (فُعلال) ومعناها الماهر في عمله وفي حرفته، وقد لُقِّب بها في التاريخ الإسلامي غير واحد؛ ومن الذين حملوا هذا اللقب: كافور الإخشيدي (توفي 357هـ) وهذا ما كرره المتنبّي (توفي 354هـ) في مدائحه لكافور، فقال:

ترعرع الملكُ الأستاذ مكتهلاً
قبل اكتهالٍ، أديبًا قبل تأديبِ[2]

ويقول في موضعٍ آخر:

كرمٌ في شجاعةٍ وذكاءٌ
في بهاءٍ، وقدرةٌ في وفاءِ
من لبيض الملوكِ أن تُبدِلَ اللونَ (م)
بلون الأستاذ والسَّحناءِ[3]

ومن هذا القبيل قوله:

(1) أبو تراب الظاهري، **لجام الأقلام**، ص70، ط1، 1982م، تهامة للنشر والتوزيع، جدة.

(2) عبد الرحمن البرقوقي، **شرح ديوان المتنبي**، ج 1، ص 293، دار الكتاب العربي، بيروت، 1987م.

(3) المرجع السابق / ج 1 ـ ص 159.

مـدىً بـلَّـغ الأسـتـاذَ أقـصـاهُ ربُّـهُ
ونـفـسٌ لـه لـم تـرضَ إلا الـتـنـاهـيـا

كما عُرف بهذا اللقب (الأصولي الشافعي)أبو حامد الأسفراييني (توفي 406هـ)[1].

وابن العميد (توفي سنة 360هـ)[2]، وأطلق ابن خفاجة الأندلسي (توفي سنة 533هـ) لقب (الأستاذ) على أبي بكر البطليوسي (توفي سنة 521هـ) في قصيدة بعثها إليه منها قوله:

وشـاق إلـى تُـفـاح لـبـنـان نـفـحـهُ
وهـيـهـات من أرض الـجـزيـرة لـبـنـانُ
فـهـل تَـرِدُ الأسـتـاذَ مـنـي تـحـيَّـةٌ
تسيرُ كما عاطى الزُجاجة ندمانُ[3]

وذكر الجواليقي أنها لو كانت عربية لكان اشتقاقها من (السَّتذ) وهو غير معروف[4]، وهذا ما أكده أبو تراب الظاهري كما أشرت سابقًا. وقد ذُكرتْ

(1) انظر ترجمته في (**وفيات الأعيان** ج1 ـ ص 72، 74) و(**الأعلام** للزركلي ج1، ص211)
(2) انظر ترجمته في **الأعلام**، للزركلي ـ ج 4 ـ ص 345.
(3) **ديوان ابن خفاجة**، ص 231، دار القلم، بيروت 1994م.
(4) أبو منصور الجواليقي، **المعرَّب من كلام الأعجمي**، ص 19، مرجع سابق.

في المصباح المنير، وذكرها أبو هلال العسكري (توفي نحو 395هـ) في بعض شعره.

ومما سبق نجد أن لقب (أستاذ) ذو عمق تاريخي، سابق للدرجات العلمية المعروفة اليوم، وهو يطلق على الماهر في صنعته عمومًا، فمن الناحية اللغوية يُعتبر حصرها في درجة ما بعد الدكتوراه، حصرًا للمهارة في من حاز هذه الدرجة، وربما أدى بنا مفهوم المخالفة إلى نفي المهارة عن غيره، وهذا تحجير لواسع، وإجحاف بمن لم ينل هذه الشهادة، مع أن الذين تحقّقت فيهم هذه الدرجة لا يقنعون بلقب (أستاذ) إلا مشفوعًا بلقب (دكتور)، فلماذا ننفي هذا اللقب عن المعلِّم وهو الذي يُفترض فيه المهارة والإتقان لعمله بل أقول لرسالته العظيمة؟! مع أنه تُصدَّرُ به أسماء كثيرٍ من غير المعلمين في شتى الفنون، وكل من تأنق في لباسه فهو أستاذ، فليكن تكريمنا للمعلم في يومه العالمي بأن نخلع عليه لقبه الذي خُلع منه وهو الأعزل.

أما لقب (معلِّم) فلا اعتراض لي عليه فهو إطلاق صحيح على «من اتخذ مهنة التعليم»[1] ويُضاف إلى

(1) **المعجم الوسيط**، ص 17، مرجع سابق.

ذلك في المعجم الوسيط قولهم: «ومن له الحق في ممارسة إحدى المهن استقلالًا، وكان هذا اللقب أرفعَ الدرجات في نظام الصُّناع كالنجّارين والحدَّادين وهو (مولَّد)»[1].

وبهذا يكون إطلاق كلمة (معلِّم) صحيحًا، ولكنها أصبحت حقًا مُشاعًا بين المعلِّم ومن هم أقلَّ منه في الحظ المعرفي ـ على الأقل ـ فأصبح الفوال معلمًا، والكهربائي معلمًا، والنجار معلمًا، وزعيم العصابة معلِّمًا ـ كما في الأفلام والمسلسلات ـ وهذا الذي أشار إليه الأستاذ[2] (زياد الدريس) على لسان إحدى شخصياته الدرامية «إذا كان بائع الفول (معلِّم) فماذا بقي لنا نحن المعلمين من تميّز في لقب (معلِّم)؟!»[3]

وأنا لا أنتقص من قدر أحد من هؤلاء ـ معاذ الله ـ ولكن ما حال المعلِّم وهو يسمع عشرين تلميذًا يتصايحون: (أنا يا معلِّم)؟!

وما حاله وهو يقف بجوار المقصف ينظّم

(1) المرجع السابق ـ الصفحة نفسها.

(2) كتب المقال ونُشر قبل أن ينال درجة الدكتوراه.

(3) مجلة **المعرفة**، عدد (42) رمضان 1419هـ.

التلاميذ، فيقول أحدهم: خذ يا معلِّم، فيمد يده قائلا: آخذ ماذا؟ فيجيبه التلميذ: لست أعنيك يا معلِّم، إنما أقصد معلِّم المقصف؟!

ولذلك فإن لقب (أستاذ) أليق ـ في رأيي ـ بمن اتخذ مهنة التعليم، وسلبه هذا اللقب تجريد له من أبسط ما يفترض أن يكون فيه من معاني الأستاذية: وهي المهارة في صنعته (التعليم).

وتبقى المسألة بعد ذلك وقبله «مسألة الجوهر والمعنى، والحرص على إيفاء اللقب حقَّه من الجد، والجهد، والذكاء، والشخصية، وصيانته من الابتذال، ومواضع السخرية»[1].

وللخروج من هذه الدائرة فالتحاكم إلى العرف هو السبيل الأسهل ؛ فيكون لصاحب الدرجة العلمية العالية اللقب الذي لا يرضى إلا به وهو (الأستاذ الدكتور) أما لقب (أستاذ) منفردًا، فيكون للمعلِّم، ولكل من يقع بين المعلِّم والدكتور، مع أن «إغراء هذا اللقب العلمي جعل الكثيرين يتمسَّحون به بحق وبغير حق، فالطبيب يُصَدِّرُ اسمه بهذا اللقب والصيدلي

(1) بكر بن عبد الله أبو زيد، **تغريب الألقاب العلمية**، ص20، دار العاصمة للنشر، الرياض، 1416هـ.

كذلك، حتى الحاصلين على الدكتوراه الفخرية وهم في ازدياد مطَّرِدٍ يُصَدِّرون أسماءهم بلقب دكتور، وهذه أُعجوبة الأعاجيب»[1].

وأخيرًا: تُرى ونحن نقرأ ونسمع ونشاهد بل ونعيش الاحتفاء بالمعلِّم في يومه العالمي، هل نعيد إليه لقبه المسلوب؟!

(1) من مقال (ألقاب زائفة) بقلم: عبده زايد، وهو ملحق في كتاب (**تغريب الألقاب العلمية**) ص. ص (64 ـ 72) السابق.

هل تطيق وداعًا أيها الرجل؟(*)

على أوتار حنجرته الصافية تخب القافلة إنه الحادي؛ أمامها تارة وخلفها أخرى عن يمينها، عن شمالها، كلما تجدد صوته زاد إرقالها[1] وعندما يكل صوته يثاقل خطوها لم يكن يمنحها وقتًا للراحة وعندما تشكو التعب يجيبها بصوته الصارم: (أوقفوا الزمن أوقف القافلة). لم يشْكُ السأم يومًا لأنه يرمق الأمل القادم من وراء الأفق فينسيه متاعب رحلة الثلاثين عامًا.

كان يجدّد روح المسير في نفسه وقافلته بهذا الجيل/الأمل الذي سيأتي دورُه يومًا ليكون ربّان السفينة. هكذا الحياة: صحراء تخط الرياح على وجهها ألف خط من التجاعيد الرملية ثم تمحوها ثم تخط وتمحو. أما هو فيرسم على صفحات قلوب تلاميذه البيضاء أنهارًا لا تنضب وأشجارًا لا تذوي:

(*) مجلة **المعرفة**، العدد (49)، ربيع الآخر1420هـ ـ يوليو 1999م.

(1) أرقل: أسرع في المشي، والإرقال السرعة.

أنهارًا من العطاء والحب والأمل والانتماء، وأشجارًا تزهر جمالًا وتثمر وفاء في زمن لم يعد الوفاء والإخلاص سوى لافتات على واجهات المتاجر.

هكذا الحياة طريق تمر بنا في واحات تنعم فيها عيوننا بجمال رياضها وآذاننا بتغريد بلابلها وخرير مائها وحفيف أشجارها ثم لا تلبث أن تلقي بنا في قفار موحشة تأخذ من سواد نواصينا ومن أعمارنا بوحشة سكونها وهزيم رعودها وفحيح حيَّاتها وصفير رياحها. غير أنه لم ينس يومًا أن لكل مرحلة في عمرة جمالها وبريقها، فالطفولة براءة والشباب توهج وحماسة والشيوخة وقار.

منذ ثلاثين عامًا اقتحم لُجَّةَ التعليم، ثمَّ هم بتوديعه مرارًا، ثم ينكص كلما تخيل نفسه يتقلب في فراشه والأطفال يُشْرِقون قبل الشروق، يتقافزون أمام بيته في طريقهم إلى المدرسة، كلما همَّ بتوديعهم تذكر ذلك الذي حدث ذات يوم ولم يجد له تفسيرًا؛ عندما ترك فراشه وحمل حقيبته المتخمة بالأوراق والكراريس ثم خرج كما يفعل كل يوم، فلما وصل إلى المدرسة وجد نفسه بمفرده في ساحتها وبشيء من التفكير تذكر أن اليوم يوم عطلة. يتساءلُ: كيف يتخلى عن قلبه

الذي تقاسمه مئات التلاميذ على مدى ثلاثين عامًا، قلبه الذي ترك منه جزءًا في كل مدرسة عمل فيها؟!.

وارحمة للمعلمين، وهنيئًا لمعلم بلا قلب، وويل للمعلم إذا كان إنسانًا.

يعيش مع تلاميذه في حركة دؤوب يسبّبون له المتاعب ثم ما يلبثون أن يبدّدوها ببريق نظراتهم البريئة وأصابعهم المتطاولة أمامه. فصخبهم عنده سكون وسكونهم وحشة، شقاوتهم نعمة ومشاكساتهم مرح.

ثلاثون عامًا قضاها معهم جيلًا بعد جيل لم تغيره السنون، حتى أصبح مدرسة في المدرسة، أبًا مع أبنائه، أستاذًا مع الأساتيذ، وتلميذًا مع التلاميذ.

جلس مرة في عيادة الطبيب فلمس احتفاءً بالغًا فما لبث أن اكتشف أحد تلاميذه يتقلد سماعة الطبيب ويرتدي رداء الطبيب ويريه وفاء التلميذ. يتكرر المشهد في إدارة المدرسة وفي كل مكان يأتي إليه يرى صنيعة يديه وعصارة فكره وجهده وثمرة إخلاصه وتفانيه قد تجسد معلمًا أو طبيبًا أو مهندسًا، فيتمنى أن لو أعاد الكرة ثلاثين عامًا أخرى.

ثلاثون عامًا ألقى خلالها ثلاثين خطبة وداع اتحدت ألفاظها وأسبابها وكانت الدموع أولى نتائجها.

لم يتغير سوى وجوه السامعين يتمثل دائمًا قول الأستاذ الأول حين قال لتلاميذه مودعًا:

«أولادي! انتظروا! لا تخرجوا كتبكم ولا تفتحوا دفاتركم فما جئت لألقي عليكم درسًا وإنما جئت لأودعكم... إن الوداع صعب يا أولادي لأنه أول الفراق وما آلام الدنيا كلها إلا ألوان من الفراق.

إن الوداع صعبٌ ولو إلى الغد فكيف إن كان المودَّعُ صديقًا عزيزًا فكيف إن كان ولدًا فكيف إن كانوا أولادًا؟

أنتم أولادي فهل رأيتم أبًا يودع أولاده الوداع الأخير ثم يملك نفسه أن تسيل من عينيه؟ لقد شغلتم نفسي زمانًا وأخذتم عليَّ مسالكي في الحياة فلا أرى غيركم ولا أفكر إلا فيكم، وأقنع بصداقتكم هذه الخالصة والمتعبة المرهقة، عن الصداقة الكاذبة والود المدخول»[1].

وأمام وداعه انعقدت الألسنة فإذا القلوب والعيون تقول: وهل تطيق وداعًا أيها الرجل؟!.

(1) علي الطنطاوي، **من حديث النفس**، ص 108، ط4، دار المنارة جدة، 1990م.